

الدرس الأول:

دعوة للتفكير في خلق السماوات والأرض

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع ما قاله أول رائد فضاء يصعد إلى القمر، إنه رائد الفضاء السوفيتي الملحد، فعندما أصبح حول الأرض ونظر من نافذة مركبته فرأى بديع خلق الله في السماوات والأرض، فقال: ماذا أرى؟! أنا في حلم أم سحرت عيني، ثم يقول: في الفضاء يحل الليل بصورة مفاجئة، وبسرعة تقطع الأنفاس، وتعمى العيون بلا تدرج كما هو الحال على الأرض، وليل الفضاء الخارجي من أشد الأشياء السوداء التي رأيتها في حياتي، يقول: ثم تظهر الشمس فجأة، وتلمع كأنها ضوء صاعقة مبددة خلال ثوانٍ في وسط الليل الحالك، فلا تدرج في الفضاء، بل ثوان وأنت في ليل مظلم في أحلك الظلمات، وثوان أخرى وأنت في نهار ساطع النور وهاج يبدد الظلمات.

فيا لها من نعمة، نعمة الشروق والغروب، والليل والنهار، التي أقسم الله بها في عدة آيات فقال: {فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ} (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} (٤١) {المعارج: ٤٠ - ٤١}، وقال: {وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)} {الشمس: ٣ - ٤}، ولك أن تتأمل مرة أخرى، في قائل هذه الكلمات الشيوعي الملحد؛ فالبرغم من بديع ما رأى خلال دورانه حول الأرض إلا أنه لم يرد على لسانه سوى الذهول أمام عظمة الكون، ثم السكوت المطلق عن خالق الكون ومبدعه، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، فسيحان الله! {مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} (١٨٦) {الأعراف: ١٨٦} {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} (٦) {العاديات: ٦}، {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} {إبراهيم: ٣٤}.

إخوتي في الله، لو تفكرنا في الأشياء من حولنا، سنستدل بهذا الجزء

القليل على الكثير، مثل التفكير في السماوات والأرض، وكم فيها من عبر! وكم فيها من أسرار! وكم فيها من مواطن الإعجاز! والتفكر في الشمس والقمر والليل والنهار والأرض والجبال، وكذا التفكير في الكائنات الحية من حولنا، وأيضا التفكير في أنفسنا، أشياء وأشياء يمكن التفكير فيها، والغرض من هذا التفكير أن نصل إلى الغاية، وهي معرفة خالق هذه الأشياء.

تأمل - أخي في الله - تعاقب الليل والنهار بصورة معتدلة، وتفاوت الليل عن النهار، وكل عن مثله، فلا ليل يشبه ليلا، ولا نهار يشبه نهارا منذ خلق الله الخلق وحتى قيام الساعة، إن ذلك من أعجب وأبدع آيات الله الدالة على ربوبيته وألوهيته وحكمته {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ} [فصلت: ٣٧]، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: ٦٢].

إن تعاقب الليل والنهار نعمة عظيمة؛ إذ هي تنظم وجود الأحياء على الأرض، من نمو النبات، وتفتح الأزهار، ونضج الثمار، وهجرة الطيور والأسماك والحشرات، ومن شاء فليتصور ليلا بلا نهار، أو نهارا بلا ليل، كيف تكون الحياة؟ {قُلۡ أَرَأَيْتُمۡ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ الْقِيَامَةِ مِنۡ إِلَٰهٍ غَيْرٍۭ اللَّهُ يَأْتِيكُم بَضِيآءَ أَفَلَآ تَسْمَعُونَ} (٧١) قُلۡ أَرَأَيْتُمۡ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ الْقِيَامَةِ مِنۡ إِلَٰهٍ غَيْرٍۭ اللَّهُ يَأْتِيكُم بَلِيلٌۭ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَآ تُبۡصِرُونَ} [القصص: ٧١ - ٧٢]، أما إنها لو سكنت حركة الشمس لغرق نصف الأرض في ليل سرمدي، وغرق نصفها الآخر في نهار سرمدي، وتعطلت مع ذلك مصالح ومنافع، ومن عاش في المناطق القطبية بعض الوقت عرف نعمة تعاقب الليل والنهار؛ إذ يبقى النهار لمدة ستة أشهر، والليل كذلك، {وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص: ٧٣].

وتأمل - أخي الكريم - كيف جعل الله الليل سكنا ولباسا؟ يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي إلى بيوتها الحيوانات، وإلى أوكارها الطير والحشرات، تستجم فيه النفوس، ومن كد السعي والنصب فيه تستريح، حتى إذا أخذت النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معاشها جاء قالك

الإصباح سبحانه بالنهار يقدّمه بشير الصباح، فيهزم الظلّمة ويمزّقها كل ممزّق، ويكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون. فينتشر الحيوان، وتخرج الطير من أوكارها لتطالب معاشها ومصالحها. فإيا له من معادٍ ونشأة دالة على قدرة الله على المعاد الأكبر، {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: ١٨] (٨٥).

قال أحد علماء الفلك الكفار عندما نظر إلى السماء من خلال منظار بنّاه بنفسه، فرأى ما أذهله في هذا الكون: إن الإنسانية لن تنتهي من اكتشاف أسرار الكون، ولن تعرف من الكون إلا مقدار ما نعرفه من نقطة ماء في محيط عظيم. فهل آمن مع ذلك وصدق؟ لا، وصدق الله {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧]. وقال آخر أيضاً: إن وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة وعشوائية، بل هي موضوعة في الفضاء بدقة وإتقان؛ إذ أن القمر لو اقترب من الأرض بمقدار ربع المسافة التي تفصلنا عنه لأغرق مد البحر الأرض كلها، وما علاقة القمر بالبحر؟! الله يعلمها الذي قال وصدق: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣].

ثم تعال معي نتفكر في هذا الكون بسمواته وأرضه وأحيائه، متأملين، متدبرين {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيضِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤].

تأمل السماء، انظر فيها وفي كواكبها، دوراتها، وطلوعها، وغروبها، واختلاف ألوانها وكثرتها، وشمسها وقمرها، باختلاف مشارقها ومغاربها، حركتها من غير فتور ولا تغير في سيرها، تجري في منازل قد رُتبت لها بحساب مُقدّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها.

تأمل تجد أنه ما من كوكب ولا نجم إلا والله في خلقه حكمة، في مقداره، وفي شكله، وفي لونه، وفي موضعه في السماء، والكواكب

والنجوم كلها تسبح في السماوات التي رفعت بلا عمد فوقها ولا عمد تحتها {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [القمان: ١٠] {وَيُؤْمِسُكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٥]، والإنسان العاقل أمام بديع صنع الله في سماواته يتوقف طويلاً حائراً مما يراه، فما يملك إلا أن تخشع جوارحه، وتخضع، وتذل، وتستجيب، فتقدر الله حق قدره، وتفرد به بالعبادة وحده لا شريك له.

ويقول أحد كبار علماء الفلك وهو يهودي: أريد أن أعرف كيف خلق الله الكون، أريد أن أعرف أفكاره، الله بارع حاذق ليس بشئير، الله لا يلعب بالنرد مع الكون، تعالى الله، وجلَّ الله {وَيُؤْمِسُكُمْ آيَاتِهِ فَآيَ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ} [غافر: ٨١] فكيف لو اطلع على ما جاء في القرآن، لربما كان من المؤمنين حقاً. نعم، الله لا يلعب مع الكون، ♣، فهو القائل: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوَاً لَأَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا تَصِفُونَ (١٨)} [الأنبياء: ١٦ - ١٨].

معاشر الإخوة، ما الأرض بالنسبة للكون إلا كحبة رمل في صحراء عظيمة تسير في مسار حول الشمس دون أن يصطدم بها ملايين النجوم، والكواكب المنتشرة في الكون، ولا يزال علماء الفلك يكتشفون من خلال تجاربهم ومراصدهم ومناظيرهم كل يوم ما يدهش العقول في هذا الكون الفسيح، فمنهم من رأى المجرات الصغيرة وهي تتألف من عشرة ملايين نجم قد عُرف منها ما عُرف، نعم، لقد رأى مجرتنا درب التبانة، وقد تألفت من مائة مليار نجم، قد عُرف منها الشمس، وتبدو هذه المجموعة كقرصٍ فطره تسعون ألف سنة ضوئية، وسمكه خمسة آلاف سنة ضوئية، ومع هذا البعد الشاسع فإن ضوء الشمس يصلنا في لحظات، وكذلك نور القمر. بل قد رأى هناك مجرات تكبرها بعشرات المرات، أحصى منها مائة مليار مجرة تجري، كلها في نظام دقيق بسرعة هائلة، كلٌّ في مساره الخاص دون اصطدام، كل يجري لأجل {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً} [الفرقان: ٦١]، هذا الذي رآه، وما لم يره أكثر، فقد قال الله ♣: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا

تُبْصِرُونَ (٣٩) [الحقّة: ٣٨ - ٣٩].

والله عز وجل ما خلق السماوات والأرض عبثاً، بل خلقهما لحكمة بالغة، يقول الله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧].

أخي في الله، لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله سبحانه وتعالى تدبر شؤونهما، لاختل نظامهما، فتنزه الله رب العرش، وتقدس عما يصفه الجاحدون الكافرون، من الكذب والافتراء وكل نقص (٥٩).

وصدق الله تعالى حين قال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء: ٢٢]، وصدق الشاعر حين قال:

فيا عجباً كيف يعصى الإله :: أم كيف يحجده الجاحد
والله في كل تحريكه وفي :: كل تسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية :: تدل على أنه الواحد

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس الثاني

دعوة للتفكير في عجائب البحار

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة السفينة التي لا تقهر، يذكر أنه في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، صنع الإنجليز باخرة عظيمة، كانت كما يقولون فخر صناعاتهم، ثم انطلقت في رحلة ترفيهية حاملة على متنها عليه القوم ونخبة المجتمع كما يصفون أنفسهم، وقد بلغ الفخر والاعتزاز ببناء السفينة درجة كبيرة من الصلف والغرور فسموها الباخرة التي لا تقهر، بل سمع أحد أفراد طاقمها يتشدد فخرأ أمام بعض كبار ركابها بما ترجمته: حتى الله نفسه لا يستطيع أن يغرق هذا المركب، جل الله وتعالى وتقدس لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يحيي ويميت، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وفي اليوم الثالث من سيرها في المحيط الأطلسي وفي خضم كبرياء صنّاعها وركابها تصطدم بجبل جليدي عائم فيفتح فيها فجوة بطول تسعين متراً، وبعد ساعتين وربع تستقر الباخرة التي لا تقهر - كما زعموا - في قعر المحيط ومعها ألف وخمسمائة وأربع ركاب وحمولة بلغت ستة وأربعين ألف طن، {فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)} [العنكبوت: ٤٠].

تأمل معي أخي الكريم في الله البحر بأمواجه وأحيائه تجده آية من آيات الله وعجائب مصنوعاته، وكم لله من آية! ثم أضف إلى علمك أن الماء في الأرض يملأ ثلاثة أرباع سطح الأرض فما الأرض بجبالها ومدنها وسهولها وأوديتها بالنسبة إلى الماء إلا كجزيرة صغيرة في بحر عظيم يعلوها الماء من كل جانب وطبعها العلو ولولا إمساك الرب

سبحانه وبحمده للبحر بقدرته ومشيتته لطفح على الأرض فأغرقها ودمرها وجعل عاليها سافلها، فتبارك الله لا إله إلا هو رب العالمين، ثم تأمل معي أخرى عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها ومضارها وألوانها تجد عجباً وقدرة قادر جل وعلا، قال الإمام ابن القيم في مفتاح السعادة : في البحار حيوانات كالجبال لا يقوم لها شيء، وفيه من الحيوانات ما يرى من ظهورها فيظن من عظمها أنها جزيرة فينزل عليها الركاب ويشعلون نارهم فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله بل فيه أجناس لا يعهد لها نظير أصلاً، مع ما فيه أيضاً من اللآلئ والجواهر والمرجان فسبحان الخالق العظيم، ثم انظر إلى السفن وسيرها في البحر تشقه، بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الريح التي سخرها الله لإجرائها، فإذا حبست عنها الريح ظلت راكدة على وجه الماء، فذاك قول الله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} (٣٢) **إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** (٣٣) { [الشورى: ٣٢ - ٣٣]، نعم، سخر لكم ألفلك لتجري في البحر بأمره، لا بأمر غيره سبحانه وبحمده، سخرها بأمره تجري ليست وفق رغبات النفوس الأمارة بالسوء، ولا رغبات الجشعين من الأفراد والهيئات التي استعملت أساطيلها منذ أقدم العصور إلى يومك هذا لقهر الإنسان ونهب خيراته واحتقار آدميته، فلك الحمد ربنا، ولك الأمر من قبل ومن بعد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أخي الحبيب، تأمل معي مرة أخرى كيف مد الله البحار، وخلطها، وجعل مع ذلك بينه حاجزاً ومكاناً محفوظاً، فلا تبغي محتويات بحر على بحر، ولا خصائص بحر على آخر عندما يلتقيان، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ} [طه: ٥٤]، في إيران أنهار عندما تلتقي بمياه البحر ترجع مياهها عائدة إلى مجاريها التي جاءت منها، ونهر الأمازون يجعل مياه المحيط الأطلسي عذبة لمئات الكيلو مترات من مصبه فيه فلا يختلط بمياه المحيط الأطلسي، وتلتقي مياه المحيط الأطلسي بمياه البحر الأبيض فتبقى مياه البحر الأبيض أسفل لتقلها ولكثرة ملحها وتعلو مياه المحيط لاختفائها، وكذلك

لا تختلط مياه البحر الأسود بمياه البحر الأبيض عندما تلتقي بل تشكل مجريين متلاصقين فوق بعضهما البعض، فمياه الأسود تجري في الأعلى نحو مياه البحر الأبيض لأنها أخف، ومياه البحر الأبيض تجري في الأسفل لأنها أثقل فتجري نحو البحر الأسود، فتبارك الذي قال {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّحْجُوراً} (٥٣) {الفرقان: ٥٣}.

معاشر الإخوة، سأل رجل أحد السلف عن الله، قال له : ألم تركب البحر؟ قال: بلى، قال فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الرياح عاصفة قال: نعم، قال وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة، قال: نعم، قال فهل خطر ببالك وانقذ في نفسك بأن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء، قال: نعم، قال فذاك هو الله لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً الذي قال في كتابه {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِمِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (٢٣) {يونس: ٢٢ - ٢٣} (٥٩).

فالله سبحانه وتعالى هو الذي يسيركم أيها الناس في البر على الدواب وغيرها، وفي البحر في السفن، حتى إذا كنتم فيها وجرت بريح طيبة، وفرح ركاب السفن بالريح الطيبة، جاءت هذه السفن ريحٌ شديدة، وجاء الركاب الموج - وهو ما ارتفع من الماء - من كل مكان، وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، أخلصوا الدعاء لله وحده، وتركوا ما كانوا يعبدون، وقالوا: لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نحن فيها ل نكون من الشاكرين لك على نعمك. فلما أنجاهم الله من الشدائد والأهوال إذا هم يعملون في الأرض بالفساد وبالمعاصي. يا أيها الناس إنما وبأل بغيكم راجع على أنفسكم، لكم متاع في الحياة الدنيا الزائلة، ثم إلينا مصيركم ومرجعكم، فنخبركم بجميع أعمالكم، ونحاسبكم عليها.

إخوتي في الله، عجائب البحر أعظم من أن يحصيها أحد إلا الله،

كشف علماء البحار من النصف الثاني من القرن العشرين أن في البحار أمواجاً عاتية دهماء مظلمة حالكة، إذا أخرج المرء يده لم يكدرها فعلى عمق ستين متراً عن سطح البحر يصبح كل شيء مظلماً في البحار، بمعنى أننا لا نستطيع رؤية الأشياء في أعماق تبعد ستين متراً عن سطح البحر، ولذلك زود الله الأحياء البحرية التي تعيش في أعماق البحار اللجبة بنور تولده لنفسها ومن لم يجعل الله له نوراً في تلك الظلمات فما له من نور، نسي هؤلاء المكتشفون أن الله ذكر تلك الظلمات في قوله قبل أن يخلقوا وآبائهم وأجدادهم {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ جُمِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)} [النور: ٤٠] ترجم معنى هذه الآية لعالم من علماء البحار أفنى عمره في ذلك، وظن أنه على شيء وأنه اكتشف شيئاً، وجاء بشيء فيه إبداع، فقال في دهشة بعد ترجمة الآية: إن هذا ليس من عند محمد الذي عاش حياته في الصحراء، ولم يعاين البحر ولججه وظلماته وأمواجه وشعبه، إن هذا من عند عليم خبير ثم شهد شهادة الحق ودخل في دين الله، نعم لا يملك إلا ذلك، من وصف الظلمات في قعر البحار سوى الله العليم الباري، سبحانه ملكاً على العرش استوى وحوى جميع الملوك والسلاطان، لا إله إلا الله كيف تعمى العيون وتعمى القلوب عن آيات الله {إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢] (٥٩)، وصدق الشاعر حين قال:

فيا عجباً كيف يعصى الإله :: أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريك وفي :: كل تسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية :: تدل على أنه الواحد

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس الثالث

دعوة للتفكير في هذا الكون العظيم

الحمد لله حمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع حقيقة علمية عظيمة يتحدث عنها القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة عام، يقول المهندس عبد الدائم الكحيل: منذ بداية القرن العشرين بدأ العلماء يلاحظون أن القشرة الأرضية مع الطبقة التي تليها، ليست قطعة واحدة، بل مقسّمة إلى ألواح، وتفصل بين هذه الألواح شقوق تمتد لآلاف الكيلومترات. وبدأوا يرسمون الخرائط الخاصة بشبكة الشقوق أو الصدوع والتي توضح هذه الألواح.

ولكن الذي يثير العجب أنهم اكتشفوا صدعاً ضخماً، فقد اكتشف العلماء صدعاً يمتد لأكثر من ٤٠ ألف كيلو متر، وأسموه حلقة النار، هذه الحلقة موجودة في قاع المحيط الهادئ وتمتد على طول الساحل الغربي لأمريكا مروراً بالأسكا ثم اليابان والفلبين وأندونيسيا ثم جزر المحيط الهادئ الجنوبية الغربية ثم نيوزيلندا، ووجدوا أن النشاط الزلزالي في هذه الحلقة ينتج عن اصطدام الألواح الأرضية بعضها بعض. ويؤكد العلماء أن ٩٠ بالمئة من براكين العالم وزلازل تتركز في هذه الحلقة (حسب وكالة الجيولوجيا الأمريكية).

والله تعالى يخبرنا بهذا الصدع منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، قال الله تعالى: {وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ} [الطارق: ١٢ - ١٣]، هذه آية عظيمة حيث يقسم الله تعالى بالأرض وبظاهرة جيولوجية عظيمة وهي (الصدع)، وهذا دليل واضح على أن كتاب الله ليس بكلام بشر وهو القرآن الكريم، بل هو قول فصل أنزله الذي يعلم أسرار السماوات والأرض.

أخي في الله، تأمل هذه الأرض بينما هي هادئة ساكنة وادعة؛ مهاد وفراش، قرار وذلول، خاشعة، إذا بها تهتز، تتحرك، تثور، تتفجر، تدمر، تبتلع، تتصدع، زلازل، خُسْف، براكين، تجدها آية من آيات الله، وكم لله من آية يخوف الله بها عباده لعلهم يرجعون، وهي مع ذلك جزاء لمن حَقَّ عليه القول. وهي أيضاً تذكير بأهوال الفزع الأكبر، يوم يُبعثون ويُحشرون، وعندها لا ينفع مال ولا بنون، يذكر صاحب علوم الأرض القرآنية أنه قبل حوالي خمسة قرون ضرب زلزال شمال الصين عشر ثوان فقط، هلك بسببه أربعمائة وثلاثون ألف شخص، وقبل ثلاثة قرون ضرب زلزال مدينة لشبونة في البرتغال لعدة ثوان، هلك فيه ستمائة ألف، وشعر الناس برعب وهلع وجزع إثر ارتجاج الأرض تحت أقدامهم على مساحة ملايين الأميال، فنعوذ بالله أن نُغْتال من تحتنا.

فإلى أولي الألباب {آمِئْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} (الملك: ١٦)، انفجرت جزيرة كراكات في المحيط الهندي قبل قرن، فسمع الانفجار إلى مسافة خمسة آلاف كيلو متر، وسجلته آلات الرصد في العالم، وتحولت معه في ثوان جزيرة حجمها عشرون كيلو متراً مربعاً إلى قطع نثرها الانفجار على مساحة مليون كيلو متر مربع، وارتفعت أعمدة الدخان والرَّماد إلى خمسة وثلاثين كيلو متر في الفضاء، وأظلمت السماء على مساحة مئات الكيلو مترات حاجبة نور الشمس لمدة سنتين، وارتفعت أمواج البحر إلى علو ثلاثين متراً، فأغرقت ستة وثلاثين ألف نسمة من سكان جاوا وسومطره {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} [المدثر: ٣١]، {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [الأنعام: ٦٥]، {قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ} (١٧) {عبس: ١٧}، يسمع ويرى آيات الله من زلازل وبراكين وأعاصير وأوبئة تحصد الآلاف في ثوان فلا يتفكر ولا يتدبر ولا يقدر الله حق قدره بل يُعيد ذلك أحياناً إلى الطبيعة في بلادة وبلاهة لا مثيل لها {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (٦٧) {الزمر: ٦٧}، لا يملك المسلم إزاء هذه البلاهة والبلادة إلا أن يقول بقول الله {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ

أَحَدًا (٤٩) { [الكهف: ٤٩]، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) { [الأعراف: ٩٦]، وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَّلْجُودِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّبِّهِمْ وَمَا يَنْصُرُهُوْنَ (٧٦) { [المؤمنون: ٧٥ - ٧٦] (٥٩).

وهناك آيات كثيرة أودعها الله في هذه الأرض وسخرها لنا لنكتشفها ونزداد إيماناً و يقيناً بهذا الخالق العظيم، ولتكون وسيلة نرى من خلالها قدرة الله لتكون من الموقنين، يقول تبارك وتعالى في محكم الذكر: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [الذاريات: ٢٠ - ٢٣]، هذه آيات عظيمة يحدثنا فيها تبارك وتعالى عن آياته في هذه الأرض وفي الأنفس، فالأرض التي خلقها الله تعالى لنا هيأها بصورة مناسبة للحياة، فلو كانت الكرة الأرضية التي نعيش عليها وهي تبعد بحدود مئة وخمسين مليون كيلو متر عن الشمس، لو كانت أبعد بقليل من هذه المسافة عن الشمس لتجمدت الحياة على الأرض، ولو كانت أقرب بقليل من الشمس لاحتترقت المخلوقات على وجه الأرض.

فالله تبارك وتعالى جعل هذه الأرض في مدارها الصحيح والمناسب للحياة، والعلماء اليوم يقولون بالحرف الواحد: إن هذه الأرض وُضعت في المدار الصحيح، والقابل للحياة، ولولا ذلك لم تظهر الحياة على ظهرها أبداً.

ولو أن هذه الأرض كانت بطينة في دورانها، ماذا حدث؟ نحن نعلم أن دوران الأرض حول نفسها في مواجهة الشمس يولد الليل والنهار، فلو كانت الأرض أبطأ مما عليه اليوم، لامتد الليل طويلاً، ربما لأشهر أو لسنوات وامتد النهار طويلاً أيضاً، ولكن الله تبارك وتعالى الذي جعل الليل لباساً والنهار معاشاً جعل مدة دوران الأرض حول نفسها هو بحدود ٢٤ ساعة، وهذه المدة مناسبة لتركيبية جسم الإنسان، فالإنسان لا يستطيع أن ينام أكثر من ٧ أو ٨ أو ٩ ساعات، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى جعل

الليل، وجعل النهار، مدتهما مناسبة لحجم وعمر وحركة هذا الإنسان، وهذه نعمة من نعم الله تبارك وتعالى الكثيرة والتي قال فيها: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٤]. فهذا هو حال الإنسان.. دائماً يظلم نفسه ويكفر بنعم الله تبارك وتعالى التي أنعمها عليه. إخوتي في الله، إذا نظرنا إلى سطح القمر مثلاً، نلاحظ أنه مليء بالفوهات البركانية، وبالحفر التي أحدثتها الزلازل والنيازك التي ضربته لبلايين السنين، فإذا نظرنا إلى القمر نرى أنه غير مسطح وغير ممهد وغير صالح للحياة أصلاً، فلا يمكن إنشاء وإعمار الحياة على ظهر القمر، وأن الأرض هي الكوكب الوحيد الذي إذا وقفت على ظهره لا تشعر بأي انحناء أو أي خلل، بل تراه مسطحاً وممهداً ومفروشاً أمامك، لذلك قال تعالى: {وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} [الذاريات: ٤٨]، وقول الله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)} [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

الإخوة الأعزاء، يقول الدكتور يحيى المحجری في كتاب آيات قرآنية في مشكاة العلم أن أهم اكتشاف عام ١٩٢٩ هو اكتشاف هابل اكتشاف أن كل المجرات في ابتعاد مستمر عن بعضها بسرعات هائلة قد تصل في بعض الأحيان إلى كسور من سرعة الضوء وكذلك بالنسبة لنا فكل المجرات التي نراها حولنا - ما عدا الأندروميديا وبعض المجرات الأخرى القريبة - في ابتعاد مستمر عنا، ولنا الآن أن نتساءل عن معنى هذا الاكتشاف، إذا كانت وحدات الكون كلها في ابتعاد مستمر عن بعضها فإن ذلك لا يعنى إلا شيئاً واحداً وهو أن الكون في تمدد جمعي أو اتساع مستمر مصداقاً لقول الله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: ٤٧]، وصدق الشاعر حين قال:

فيا عجا كيف يعصى الإله :: أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريك وفي :: كل تسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية :: تدل على أنه الواحد
(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب
إليك)

* * *

الدرس الرابع

دعوة للتفكير في خلق الإنسان

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع التفكير في خلق هذا الكائن العظيم إنه الإنسان، فحينما يتأمل الإنسان على ما جاء في القرآن الكريم وهو الكتاب المنزل من الله تعالى على رسول الإسلام محمد ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، يجد الكثير من الآيات القرآنية التي تكلمت عن خلق الإنسان بل سجد العجب العجاب، ويجد فعلاً عظيمة الله تعالى في خلق هذا الإنسان، هذا المخلوق العجيب، من يتصور أيها الفضلاء! أننا نحن هذا الكائن الغريب؟! هذه الأجسام العظيمة، هذه العقول، هؤلاء البشر الذين يمشون على الأرض من يتصور أن أصل هؤلاء جميعاً هو من نطفة؟! بل من نطفة قدرة يتقذر الإنسان منها لو رآها على ثوبه، لو وقعت على ملابسه لتقزز الإنسان منها، ولقد جاء في القرآن الكريم أن الإنسان خلق من سلالة من ماء مهين قال تعالى: {مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [السجدة: ٨].

بل حتى القرآن أحياناً يذكر هذه الحقيقة على استحياء: {كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ} [المعارج: ٣٩].

وجاء أيضاً قول الله تعالى: {إِنَّا أَنبَأْنَا النَّاسَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَبِّرُ

الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) [الحج: ٥ - ٧].

فالله سبحانه وتعالى يخاطب الناس كلهم فيقول لهم: يا أيها الناس إن كنتم في شك من أن الله يُحيي الموتى فأنا خلقنا أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته من نطفة، وهي المنى يقذفه الرجل في رحم المرأة، فيتحول بقدرة الله إلى علقة، وهي الدم الأحمر الغليظ، ثم إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة قُدر ما يُمضغ، فتكون تارة مخلقة، أي تامة الخلق تنتهي إلى خروج الجنين حيًا، وغير تامة الخلق تارة أخرى، فتسقط لغير تمام؛ لنبيّن لكم تمام قدرتنا بتصريف أطوار الخلق، ونبقي في الأرحام ما نشاء، وهو المخلّق إلى وقت ولادته، وتكتمل الأطوار بولادة الأجنة أطفالاً صغاراً تكبرُ حتى تبلغ الأشد، وهو وقت الشباب والقوة واكتمال العقل، وبعض الأطفال قد يموت قبل ذلك، وبعضهم يكبرُ حتى يبلغ سن الهرم وضعف العقل؛ فلا يعلم هذا المعمّر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك. وترى الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات تنفتح عنه، وارتفعت وزادت لارتوائها، وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن الذي يسرُّ الناظرين. ذلك المذكور مما تقدّم من آيات قدرة الله تعالى، فيه دلالة قاطعة على أن الله سبحانه وتعالى هو الرب المعبود بحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وهو يُحيي الموتى، وهو قادر على كل شيء. وأن ساعة البعث آتية، لا شك في ذلك، وأن الله يبعث الموتى من قبورهم لحسابهم وجزائهم.

إخوتي في الله، من يصدق أن هذه النقطة الصغيرة المتعلقة بجدار الرحم تكمن فيها جميع خصائص هذا الإنسان المقبل من صفاته الجسدية وسماته من طول وقصر وضخامة وضآلة، وقبح ووسامة، وآفة وصحة، كما تكمن فيها صفاته العصبية والعقلية والنفسية، وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة في هذا الإنسان المعقد المركب الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر فلا يتمثل اثنان في هذه الأرض على الإطلاق، وهذه من أعجب الأشياء، هذه النقطة الصغيرة كل البشر لا يمكن أن يأتي اثنان متشابهان في كل الأشياء، مستحيل.

قد يتشابه اثنان مثلاً في لون الوجه، في لون العينين، في بعض الملامح البارزة لكن لا يمكن أن يتفق على وجه الأرض منذ فجر الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا يمكن أن ترى اثنين يتشابهان في كل الأمور، وفي كل الصفات.

أخي الحبيب، إن حكمة الخلق لا يمكن أن يتعرف عليها الإنسان بذاته، فلا بد أن يتعلم هذه الحكمة من الذي خلقه، وأنت أيها الإنسان لم تخلق نفسك، قال الله تعالى في القرآن: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)} [الطور: ٣٥ - ٣٦] إن خالق الإنسان وخالق الكون هو الله الذي لا إله إلا هو الذي قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الزمر: ٦٢ - ٦٣].

والمحال الأعظم أن يخلق الله عز وجل هذا الكون وهذه العوالم، سماءات وأرض، وبحار، ونجوم، وجبال وشجر، ودواب وأنعام، وليل ونهار عبثاً، محال أن يخلقها الله عبثاً.

يقول الله عز وجل: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

إن الله عز وجل ما خلقك عبثاً، بل خلقك لحكمة، هذه الحكمة تعرفها من قول الله عز وجل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦] هذه حكمة خلقك، وهذا سبب وجودك: أن تعمر هذه الحياة بعبادة الله: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)} [الذاريات: ٥٨].

الرزق مكفول، والعمر محدود، والإمكانات موفرة، والمنهج واضح، والطريق مستقيم، وأنت مأمور أن تسير على هذا المنهج، وأن تواصل السير على هذا الطريق المستقيم، وألا تلتف أو تنحرف؛ فإنك إن انحرفت عن هدي الله وعن طريق الله، كان المصير دماراً وعذاباً في الدنيا، ودماراً وبواراً في النار، قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

نَبِّئْهُمْ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) [الإنسان: ٢ - ٥].

فيخاطب الله سبحانه وتعالى البشرية قائلا: إنا خلقنا الإنسان من نطفة مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، نخبره بالتكاليف الشرعية فيما بعد، فجعلناه من أجل ذلك ذا سمع وذا بصر؛ ليسمع الآيات، ويرى الدلائل، إنا بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر؛ ليكون إما مؤمناً شاكراً، وإما كفوراً جاحداً. إنا أعتدنا للكافرين قيوداً من حديد تُشدُّ بها أرجلهم، وأغلالاً تُغلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، وناراً يُحرقون بها. إن أهل الطاعة والإخلاص الذين يؤدون حق الله، يشربون يوم القيامة من كأس فيها خمر ممزوجة بأحسن أنواع الطيب، وهو ماء الكافور.

تعلموا هذه الحقيقة من الله، أنكم ما خلقتُم عبثاً؛ لأن العبث محال على الله، بل العبث غير لائق بك أيها الإنسان! لو بنيت جداراً في بيتك، أو صممت عملاً في محيط اختصاصك، ثم سألك أحد الناس، وقال لك: لم هذا؟ فقلت: عبثاً، أليس نقصاً في رجولتك؟ أليس قدحاً في عقليتك أن تعمل شيئاً عبثاً بدون حكمة؟ نعم، قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً} [طه: ١٢٤] أي ومن تولى عن ذكرى الذي أذكره به فإن له في الحياة الأولى معيشة ضيقة شاقة - وإن ظهر أنه من أهل الفضل واليسار -، ويُضَيَّقُ قبره عليه ويعذب فيه، ونحشره يوم القيامة أعمى عن الرؤية وعن الحجة، والله ولو امتطى أحدث الموديلات، ولو امتلك ملايين الدولارات، ولو نكح أجمل الزوجات، ولو سكن أرفع العمارات، ولو احتل أعلى الرتب والمناصب، وقلبه بعيد عن الله، فإن هذه كلها لا تزيده إلا عذاباً (٦٦)، وصدق الشاعر حين قال:

فيا عجا كيف يعصى الإله :: أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وفي :: كل تسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية :: تدل على أنه الواحد

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

الدرس الخامس:

دعوة للتفكير في النفس البشرية

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع مجاء في كتاب سنريهم آياتنا في أن امرأة حملت مكرهة، وحاولت إسقاط الجنين، ولم تستطع؛ إذ قد ثبته الله، فجعله في قرار مكين؛ فأتى لأحد أن يسقطه؟ ولدت بعد ذلك، وكان المولود أنثى، ولما ولدت رفضت أن تتناول ثدي أمها، وأصرّت أيّاماً على هذا، ولكنها مع ذلك قبلت أن ترضع من مرضعة أخرى غير أمها، عندها أغضبت عيناها، وأعيدت إلى أمها معصوبة العينين، فرفضت ثديها مرة أخرى وهي لم تره، فأجرى الطبيب حواراً مع أمها، تبين أن الأم لم تكن راغبة في الحمل، فحملت على كُرّه، وحاولت الاعتداء عليه بإسقاطه، فانعكس ذلك على الجنين بعد ولادته، فسبحان الله رب العالمين! إنها أحاسيس ومشاعر وأفعال أمه، تنعكس عليه فحسب، وإلا فهو لا يعلم شيئاً بنص قول الله تعالى: {وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: ٧٨].

أي لا تعلمون شيئاً من أمور الدنيا، ولا تعلمون شيئاً مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة، ولا تعلمون مصالحكم ومنافعكم؛ فهم يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون، وبعد خروجهم يرزقهم الله السمع؛ فالأصوات يدركون، ويرزقهم البصر؛ فالمرئيات يعرفون ويحسون، ويرزقهم الأفئدة؛ فيها يميزون، وتحصل هذه الحواس بأمر الله تدريجياً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره حتى يبلغ أشده لئتمكن بها من عبادة ربه وطاعة مولاه جل وعلا.

إنها دعوة لمن يتفكرون، ويتدبرون فينتفعون، فلا عند حدود النظر المشهود يقفون، بل إلى قدرة الله ﷻ في خلقه ينظرون، ولسان حالهم

ومقالهم: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصر: ٧٠]، والمقصود {لِيُرَدَّادُوا إِلَيْنَا مَعَ إِيَّائِهِمْ} [الفتح: ٤].

تأمل أخي في الله مدى معرفة الناس بالجنين قبل حوالي ثلاثين عامًا، لقد كان كائنًا حيًا لا يُعَلَّم عنه إلا حركاته التي يصدرها داخل بطن أمه، ومع تطور وسائل الملاحظة والمشاهدة، ووصولها إلى بطن الجسم الإنساني - وكل ذلك بإذن الله - كالتصوير والتسجيل الضوئي والصوتي، علم أن للجنين نفسية لا ينفصل فيها عن أمه تمامًا، فتراه في حالات انكماش واكتئاب مرة، وحالات انشراح وانبساط أخرى، بل يبدي الانزعاج لبعض مخالفات أمه؛ كالتدخين مثلاً، عاقبنا الله وإياكم والمسلمين عمومًا.

يطالب طبيب مجرب من أم حامل في شهرها السادس كانت تعتاد التدخين أن تمتنع عنه لمدة أربع وعشرين ساعة، وهو يتابع الجنين بأجهزة التصوير الضوئي، فإذا به ساكن هادئ، وبينما هو كذلك، إذ قدم لها الطبيب لفافة؛ لفافة سيجارة عاقبنا الله وإياكم وما أن وضعتها بين أصابعها، وتَمَّ إشعالها إلا وأشار المقياس إلى اضطراب الجنين تبعًا لاضطراب قلب أمه. فسبحان من جعله في وسط ظلمات ثلاث، يتأذى مما تتأذى منه أمه تبعًا، وإن لم تشعر أمه بذلك. أيضًا رأوا أنه حين ترغب الأم في الحمل، ثم تحمل، تجدها ترسل إليه بإذن الله موجاتٍ من العواطف المكثفة، وتغمره بفيض زاهر من الرضا والحنان، فيبادلها الشعور مبتهجًا، وكأنه يشكرها على حسن لقائها ورعايتها. ويعبر عن امتنانه لها بحركات لطيفة ساحرة، لا حد لعذوبتها على قلب أمه، فسبحان الله، وتبارك الله أحسن الخالقين! وحين لا ترغب الأم في الحمل، ثم تحمل مكرهًا، تقطع الصلة العاطفية مع الجنين، فتراه يحيا منكشًا، ثم يبدأ يتجّه نحو المشاكسة، ويعبر عن ذلك ببركات من قدميه تعبر عن احتجاجه واستنكاره، ولربما يصبح إسقاطًا فيما بعد، وإن لم يسقط فإنه يبدو مهياً للعناد، والرفض، والعدوان بعد ولادته، ويظهر ذلك في أول أيام ولادته.

طالعت بعض الأمهات هذه الحقائق فكنَّ يَبْحَثْنَ عَمَّا يَرِيحُ أحاسيسهنَّ ومشاعرهنَّ أثناء الحمل لينعكس على أبنائهن، ينشدن ويسمعن آيات من كتاب الله، ولذا جاء في كتاب سنريهم آياتنا: أن سيدة حامل في دمشق كانت تكثر من قراءة القرآن وسماعه قائمة وعاملة ومضطجعة، والنتيجة أنه عندما وُلِدَ الجنين تمكن بفضل الله أن يختم القرآن؛ حفظاً وتلاوة في الخامسة من عمره، فتبارك الله أحسن الخالقين! موجز القول: أن الجنين الذي يحيا في رباط مع أمه، سعيدا من العواطف المصحوبة بالرضا والسكينة، يستجيب بإذن ربه بعد ولادته، معترفاً بإحسان أمه إليه لسان حاله: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠] (٨٥).

أخي الحبيب، النوم، ما النوم؟ هل تأملته يوماً من الأيام؟ أنت تعرفه وتمارسه كل يوم، بل إن ثلث عمرك يذهب فيه، ضرورة لا غنى عنها، بل إن حياتك مؤلفة من قسمين اثنين لا ثالث لهما، من يقظة تبتغي فيها فضل الله، وفق شرع الله، ونوم تبتغي فيه الراحة لتعاود العمل في طاعة الله، الليل لباس، والنهار معاش، قال تعالى في القرآن {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [يونس: ٦٧]، النوم آية، بل إنه وفاة وموت؛ بنص قول الله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ - عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: ٤٢]، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَنَامُ وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ» (١)، وقال تعالى: {لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥].

هل تأملت أخي الحبيب ما يجري لإنسان حين ينام وينسلخ من وعيه فيرفع عنه القلم كيف يتسرب إليه النوم، ثم يستولي عليه؟ كيف يأتيه، أو كيف يأتي هو إلى النوم؟، في النوم تتعطل وظائف الحس إجمالاً، يتوقف البصر أولاً بإغماض الجفون حتى لو لم تغمض العينان، كما هي عند بعض الناس، فتبقى الجفون مفتوحة، لكن الرؤية مفقودة، كذلك الموت، والنوم مorte صغرى، والحاسة التي تبقى تعمل خلال النوم هي السمع،

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٢٩٣.

وقد حذد العلماء والباحثون استمرار السمع خلال النوم بمقدار الثلثين على تفاوت بين الناس في السمع، فما أجمل الإعجاز في كتاب الله يوم يقول: {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [الكهف: ١١]، فجمع بين النوم والسمع في سياق واحد، أما الدماغ أثناء النوم فلا ينام بالمعنى المفهوم، لكنه يتغير فبعد أن كان يبيت موجات عالية يبيت موجات أقل تردداً، ولذا رُفِعَ القلمُ عن النائم حتى يستيقظ؛ لأن العقل مناط التكليف كما هو معلوم.

أخي في الله، هل تأملت نائمين متجاورين، ودار بخلدك أن أحدهما ربما ينعم بالرؤى الصالحة بوذه ألا يستيقظ الدهر كله مما يجد من لذة، والآخر يجاوره في شقاء يُعَذَّبُ بالأحلام الشيطانية المزعجة، بوذه لو لم يَنَمْ، ثم ساءلت نفسك، هل يعلم هذا عن مجاوره، أو ذاك عن هذا؟ أو أنت تعلم ما يدور بذهنهما، ألم يَدُرْ بخلدك وأنت تستعرض هذا في ذهنك أن تنتقل من هذه الصورة مباشرة إلى المقابر، فتتخيل الموتى صفوفًا بجانب بعضهم، هذا يُنَعِّمُ، وذاك يُعَذَّبُ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)} [ق: ٣٧] (٥٩).

يقول صاحب كتاب النوم والأرق: أن شخصاً نهض من فراشه نائماً، وخرج من النافذة، ومشى على سور العمارة من الخارج، وتجمع الناس في الشارع يحبسون أنفاسهم خشية وقوعه، وظل يمشى على السور مغمض العينين حتى دار حول العمارة، ثم عاد إلى النافذة ودخل منها ليعود إلى سريره، فواصل نومه، ولما استيقظ لم يذكر شيئاً مما حدث له، لقد كان يتحرك وهو نائم بل يمشى على ارتفاعات شاهقة مُغْمَضِ العينين لو كان في صحوة ما استطاع ذلك من الذي قاد خطاه؟!

إن في هذا لدلالة قاطعة على وحدانية الله تعالى {إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢]، (٥٩)، وصدق الشاعر إذ قال:

فيا عجا كيف يعصى الإله :: أم كيف يحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وفي : كل تسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية :: تدل على أنه الواحد
(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب
إليك)

* * *

الدرس السادس:

دعوة للتفكر في عالم النحل

الحمد لله حمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع ما جاء في دفاع النحل عن مملكته، يُذكر أن ألد أعداء النحل هو الفأر، يهاجم الخلية فيأكل العسل ويلوث أجواء الخلية، فماذا تفعل تلك النحلة الصغيرة أمام هذا الفأر الذي هو لها كجبل عظيم، إنها تطلق عليه مجموعة من العاملات فتلدغه حتى يموت، كيف تخرجه، إن بقي أفسد العسل، ولوث أجواء الخلية، ولو اجتمع نحل الدنيا كله لإخراجه ما استطاع، فماذا يفعل، جعل الله ﷻ للنحل مادة شمعية يفرزها ويغلف بها ذلك الفأر فلا يتنن ولا يتغير ولو بقي ألف عام، حتى يأتي صاحب الخلية فيخرجه، فسبحان من قدر فهدى وخلق فسوى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢].

فالنحل مأمور بالأكل من كل الثمرات خلافاً لكثير من الحشرات التي تعيش على نوع معين من الغذاء، وتعجب أنها لا تأكل من التبغ فلا تأكل إلا الطيبات فهل يعتبر بذلك أهل الغفلات، زودها الله بقرني استشعار وجعل فيهما شعيرات عصبية دقيقة يصل عددها إلى ثلاثين ألفاً تشكل حاسة الشم والسمع واللمس، وتعمل كالكشفاف في ظلام الخلية، فسبحان من وهبها ذاك وبه زودها.

للنحلة عيون كثيرة، في حافتي الرأس عينا، وعينا أخرى في أعلى الرأس وتحتهما عين ثالثة، مما جعل لها سعة أفق في النظر، فالنحلة ترى أقصى اليمين وأقصى الشمال والبعيد والقريب في وقت واحد، علماً بأن عيونها لا تتحرك، ولذا فالنحل قد يعيش في أماكن يكون فيها السحاب معظم شهور السنة مع أن رؤية الشمس كما هو معلوم ضرورية لمعرفة مكان الحقول التي فيها غذاء النحل، وهنا تكمن الحكمة في قوة رؤية النحل، فبإمكانها رؤية الشمس من خلال السحب، كل ذلك

لئلا يموت جوعاً في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام، كما هو في بعض البلدان، إنها حقيقة مذهلة، تدل على حكمة الله، وقدره الله، ووحدانية الله، وكمال تدبيره فتبارك الله أحسن الخالقين.

أما فم النحلة فمن أعاجيب خلق الله في خلقه، إذ هو مزود بما يُمكنه من أداء جميع الوظائف الحيوية فهو يقضم ويلحس، ويمضغ ويمتص، وهو مع هذا شديد الحساسية لما هو حلو الطعم طبيعياً، ولا يتخرج من المواد المرة، إذ يحولها إلى حلوة بإذن ربه الذي ألهمه فسبحان من قال: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

أما سمع النحل فدقيق جداً، يتأثر بأصوات وذبذبات لا تستطيع أن تنقلها أذن الإنسان، فسبحان من زوده بها، وتحمل مع ذلك النحلة ضعفها وزنها، وبسرعة أربعمئة خفقة جناح في الثانية الواحدة، وهناك من النحل مرشحات، عندما تجد مصدراً للغذاء تفرز عليه مادة ترشد إليه بقية أخواتها للرحيق، وعندما ينضب وينتهي الرحيق تفرز عليه المرشحات مواد منفرة منه، حتى لا يضيع الوقت في البحث فيه، ثم تنتقل إلى مصدر آخر، من علمها وأرشدتها؟ إنه الله القائل: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٢٦]، والقائل: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦].

وتستطيع العاملة خارج الخلية الرجوع إلى خليتها والتعرف عليها من بين عشرات الخلايا، بلا عناء ولا تعب، ولو ابتعدت عنها آلاف الأميال، ولذا يقول أحد علماء الأحياء الكفار، وقد رصد النحل بمناظيره فترة طويلة، يقول: يا عجباً لها تنطلق آلاف الأميال من شجرة إلى ثمرة إلى زهرة، ثم تعود ولا تخطئ طريقها، ربما أن لها ذبذبات مع الخلية، أو أنها تحمل لاسلكياً يربطها بالخلية، ربما! ربما! ثم يقف حائراً بليداً تائهاً، أما نحن فإنا نوقن أن الله ألهمها ذلك وأوحى إليها وعندنا سورة في كتاب الله تسمى سورة النحل قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ

لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) { [النحل: ٦٨ - ٦٩] (٥٩).

أما عن حُرَّاس خلية النحل الذين يتفقدون كلَّ من يدخل الخلية فالنحل من أطف الحيوان وأنقاء وأنظفه، ولذلك لا تلقي مُخَلَّفَاتِهَا فِي خَلِيَّتِهَا، بل تطير ثم تلقيها بعيداً عنها، وتَأبَى النتن والروائح الكريهة، تَأبَى القذارة، ولذلك إذا رجع النحل إلى الخلية بالعشية، فإن حراساً للخلية يستطيعون أن يميزوا كل غريب ودخيل عليهم من النحل، فيطرحوه خارجاً أو يقتلوه، علماً أن تعداد الخلية يصل إلى ثمانين ألف نحلة أو أكثر حيث يقف على باب الخلية بَوَّاب منها، ومعه أعوان كُثُر، وكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقد ما وجد فيها رائحة منكرة، أو رأى بها قُدْرًا منعها من الدخول وعزلها إلى أن يدخل النحل كله، ثم يرجع إلى الممنوعات المعزولات فيتبين ويتثبت، ويتفقد ما وجدها، فمن وجدها وقعت على شيء نجس أو منتن، قذها وقطعها نصفين ومن كانت جنايتها خفيفة، بها رائحة وليس عليها قُدْر، تركها خارج الخلية حتى يزول ما بها ثم يسمح لها بالدخول، وهذا دأب وطريقة البواب كل يوم في كل عشية، فسبحان من ألهمه، سبحان من ألهمه معرفة صاحبه من غيره، {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

هل تأملت أخي الحبيب النحل وأحواله وأعماله وما فيها من العبر والآيات الباهرات؟ ألم تر أقراص شمعها السداسية في دقتها الحسابية وإتقان بنائها وإحكام صنعها، الذي أدهش وما زال يدهش علماء النحل والحساب، ماهي آلات الحساب والمقاييس التي سمحت لهذا المخلوق بالوصول إلى هذا العمل الهندسي الدقيق، هل هذا بواسطة قرنين استشعار والفكين الذين يدعي علماء الأحياء أن الطبيعة زودتها بهما، سبحان الله، وتبارك الله، عجيب وغريب منطق هؤلاء يَتَسَتَّرُونَ وراء كلمات جوفاء كالطبيعة والتطور والصدفة، كلما وقفوا أمام بديع صنع الله وإعجازه في الخلق، فأنى يؤفكون وسبحان من قال: {وَجَعَلُوا بَيْنَهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل: ١٤].

الكل في النحل يعمل في الخلية لأجل الكل، لا حياة لفرد عند النحل

بدون جماعة، ولذلك أذهل ذلك علماء النحل {صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل: ٨٨].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يأكل النحل من على رؤوس الأشجار والأزهار، فتجني أطيب ما فيها ثم تعود إلى بيوتها بطائناً، فتصب فيها شرباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية، ومن عجيب أمر ملكها أنه إذا لحقه أذى من صاحب الخلية غضب وغضبه يعرفه أصحاب النحل، ثم يخرج من الخلية، فيتبعه جميع النحل حتى تبقى الخلية خالية، يذهب حتى يحط رحاله على رؤوس الشجر المرتفع، ويجتمع عليه النحل كله حتى يصير كالعنقود، عندها يضطر صاحب الخلية إلى الاحتياال عليه لاسترجاعه وطلب مرضاته، فيأخذ عصاً طويلة ويضع عليها حزمة من نبات طيب الرائحة، ويدنيه من هذا الكبير لها، من ملكها على الشجرة فلا يزال يحركه ويستجديه ويستعطفه إلى أن يرضى، فينزل على حزمة النبات الطيب الرائحة، فيحمله صاحب الخلية إلى الخلية، فينزل ويدخلها مع جنوده، ثم يتبعه جميع النحل عائداً إلى الخلية.. وينطلق النحل إلى البساتين، فتأخذ تلك الأجزاء الصافية من على ورق الزهر والورد، فتمصه لتكون مادة العسل، ثم تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها ثم تذهب لتملأ بها المسدسات الفارغة، ثم يقوم يعسوبها - أي ملكها - على بيته فينفخ فيه، ثم يطوف على تلك البيوت بيتاً بيتاً وينفخ فيها - أي البيض - كلها فتدب فيها الحياة بعد حين بأمر من؟! إنه بأمر الله تعالى فتخرج نحلاً صغاراً، فسبحان القائل {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)} (٥٩)، وصدق الشاعر حين قال:

فيا عجا كيف يعصى الإله :: أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريك وفي :: كل تسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية :: تدل على أنه الواحد

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس السابع:

دعوة للتفكر في عجائب الحيوان

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع ما شاهده أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما فيها أرز قصير من نوع بري مساحة القطعة خمسة أقدام في ثلاثة، ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أن أحداً لا بد أن يعتني بها، الطينة مشققة، والأعشاب مستأصلة والغريب أنه ليس هناك مناطق أرز حول ذلك المكان، ولاحظ ذلك العالم أن طوائف من النمل تأتي إلى هذه المزرعة الصغيرة وتذهب، فانبطح على الأرض ذات يوم ليراقب ماذا يصنع النمل، فإذا به يفاجأ أن النمل هو صاحب المزرعة، وإنه اتخذ الزراعة مهنة تشغل كل وقته فبعضه يشق الأرض ويحرث، والبعض يزيل الأعشاب الضارة وينظف، وطال الأرز واستوى ونضج، وبدأ موسم الحصاد، وهذا لا زال بمناظيره يراقب، شاهد صفاً من النمل وهو في وقت الحصاد وهو متسلقاً شجر الأرز، إلى أن يصل إلى الحبوب فتتزع كل نملة حبة من تلك الحبوب، ثم تهبط سريعاً إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض لتخزنها ثم تعود، وطائفة أخرى أعجب من ذلك تتسلق مجموعة كبيرة منها أعواد الأرز، فتلقط الحب وتلقي به فبينما هي كذلك، إذ بمجموعة أخرى تحتها تتلقى هذا الحب وتذهب به إلى المخازن.

ويعيش النمل هناك عيشة مدنية في بيوت بل في شقق وأدوار أجزاء منها تحت الأرض وأجزاء أخرى فوقها، له حراس وخدم وعبيد وهناك ممرضات تعنى بالمرضى ليلاً ونهاراً، وقسم آخر يرفع جثث الموتى ويشيعها ليدفنها، كل هذا يتم بغريزة أودعها الله في هذا القلب، فتبارك الله {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام:

تأمل أخي الحبيب تلك النملة الضعيفة، وما أعطيت من فطنة وحيلة في جمع القوت وادخاره، وحفظه ودفع الآفة عنه، ترى عبراً وآيات باهرات تنطق بقدره رب الأرض والسموات وتقول: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَتَّخَذُوا ذِيئًا مُّبِينًا} [النمل: ٦٢]، انظر إليها تخرج من أسرابها طالبة أقواتها، فإذا ظفرت بها شرعت في نقلها على فرقتين اثنتين، فرقة تحملها إلى بيوتها ذاهبة، وأخرى خارجة من بيوتها إلى القوت، لا تخالط فرقة أخرى كخيطين أو جماعتين من الناس، الذاهبون في طريق والراجعون في أخرى في تناسق عجيب، ثم إذا ثقل عليها حمل شيء، استغاثت بأخواتها فتعاونت معها على حملها، ثم خلوا بينها وبينه، وبلا أجره، تنقل الحب إلى مساكنها ثم تكسره اثنتين أو أربعة، لنلا ينبت إذا أصابه بلل، وإذا خافت عليه العفن، أخرجه إلى الشمس حتى يجف، ثم ترده إلى بيوتها، ولعلك قد مررت يوماً عليها، وعلى أبواب مساكنها حب مكسر، ثم تعود من قريب فلا ترى منه حبة واحدة.

عالم النمل عالم عجيب، من تأمله ازداد إيماناً ويقيناً بأن وراء ذلك التنظيم المحكم حكماً خبيراً، بإفراد العبادة له جديراً لا شريك له.

إخوتي في الله، للنمل مدافن جماعية يدفن فيها موتاه كالإنسان، والنمل ذكي، جد ذكي، ويصطاد بطريقة ذكية، يأتي إلى شجرة فينقسم إلى قسمين، قسم يربط تحت الشجرة قرب جذعها، وآخر يتسلق جذعها لمهاجمة الحشرات التي تكون عليها، وبذلك يحكم الطوق على كل حشرة لا تطير، فتسقط التي تنجو من النمل المتسلق فتقع في شباك النمل المتربص بها عند قاعدتها، من هداها؟، من هيا لها رزقها؟ إنه القائل {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦]، (٥٩).

جاء في كتاب الثواب العلمية في القرآن من بعض التصرفات الذكية الألمعية عند الحيوان، ما يلقي الضوء على معنى قول الله تعالى في كتابه العزيز: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} (٥٠) {طه: ٥٠}: يُذَكِّرُ أَنْ طَبِيباً وَجَدَ فِي طَرِيقِهِ كَلْباً كَسَرَتْ إِحْدَى قَوَائِمِهِ، فَأَخَذَهُ إِلَى

عيادته واهتم بها وقومها وجبرها واعتنى به حتى شفي تماماً، ثم أطلق سراحه، وبعد ذلك بزمان سمع الطبيب قرعاً لطيفاً على باب عيادته فوجد الكلب نفسه مصطحباً معه كلباً آخر مكسور الرجل، جاء به إلى المعالجة والعلاج، فسبحان الله ولا إله إلا الله، هذه عجائب طالما أخذت بها عيناك وانفتحت بها، والأعجب من ذلك قصة هر اعتاد أن يجد طعامه اليومي أمام بيت أحد المهتمين به فيأكله وفي أحد الأيام لاحظ رب البيت أن الهر لم يعد يكتفي بالقليل مما كان يقدم له من قبل، أصبح يسرق غير ذلك فقام رب البيت يرصده ويراقبه فوجده يذهب بالطعام إلى هر أعمى فيضع الطعام أمامه، فتبارك الله {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦].

ليس هذا فحسب بل هناك من القصص الواقعية عن عجائب الحيوان ما يشده العقول، ويذكر صاحب عجائب الأحياء أن فرساً صغيراً ماتت أمه عنه، فقام صاحبها الأعرابي واسمه الزعترى الذي يسكن مصر برعاية الفرس اليتيم رعاية بلغت حد التدليل، فكان يقدم له الشعير مخلوطاً بالسكر، وإذا مرض استدعى له الطبيب البيطري لفحصه إذا أصابه ما أصابه، ويمرض الأعرابي الزعترى فيفقد الفرس شهيته ويترك حظيرته ليرابط أمام خيمة صاحبه وظل كذلك أياماً ثم مات الزعترى وحمل المشيعون جنازته فسار الفرس خلفهم حزيناً منكس الرأس حتى دُفِنَ صاحبه العزيز عليه في التراب، ولما هم المشيعون بالرجوع انطلق الفرس المفجوع كالبرق وظل منطلقاً حتى وصل إلى تلٍ عالٍ فصعد ثم ألقي بنفسه من قمته ليلقى حتفه وسط دهشة الجميع، فسبحان من رزقه تلك الأحاسيس والمشاعر ومن سلبها كثيراً ممن كرمه الله من بني آدم.

أخي في الله، تعال بنا لننتقل إلى عالم الفئران فمن عجيب أمر الفأر ما ذكره صاحب العقيدة في الله أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة ينقص ويصعب عليها الوصول إليه في أسفل الجرة فتذهب وتحمل في أفواهها الماء ثم تصبه في الجرة حتى يرتفع الزيت ويقترب منها ثم تشربه، من علمها ذلك، إنه الله أحق من عبدٍ وصليٍّ له وسجّد، سبحان من يجري الأمور بحكمة في الخلق بالأرزاق والحرمان.

من علم الذئب إذا نام أن يناوب بين عينيه فينام بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام وفتح بها الثانية.

من علم الطاووس أن يلقي ريشه في الخريف إذا ألقى الشجر ورقه، فإذا اكتسى الشجر اكتسى أيضاً، بإذن من؟، بإذن من؟.

من علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث؟ فلا يسمعها عصفور حولها حتى يجيء، فيطير الجميع حول الفرخ ويحركونه ويحدثون له همه وقوة وحركة حتى يطير معهم، ذالكم هو الله القائل {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام: ٣٨].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ حَتَّى إِذَا دَفَعْنَا إِلَى حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ بَنِي النَّجَّارِ، إِذَا فِيهِ جَمَلٌ لَا يَدْخُلُ الْحَائِطَ أَحَدٌ إِلَّا شَدَّ عَلَيْهِ، قَالَ: فَذَكَّرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ، فَدَعَا الْبَعِيرَ فَجَاءَ وَاضِعًا مِشْفَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ حَتَّى بَرَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَاتُوا خَطَامًا»، فَخَطَّمَهُ وَدَفَعَهُ إِلَى صَاحِبِهِ، قَالَ: ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى النَّاسِ، قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا يَعْلَمُ أَيْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا عَاصِيَ الْحَزْنِ وَالْإِنْسِ» (١).

فسبحان من هدى هذه الكائنات للإيمان يوم ضل بعض بني الإنسان والجان، فالكون بكائناته جميعاً يسبح الله ويثني على الله، وسبحان القائل في عليائه {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الاسراء: ٤٤] (٥٩)، وصدق الشاعر حين قال:

فيا عجا كيف يعصى الإله :: أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريك وفي :: كل تسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية :: تدل على أنه الواحد

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (حم) وصححه الألباني في س. ص ١٧١٨.

الدرس الثامن

قصة خلق البشرية

الحمد لله نعمه ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع ما جاء في القرآن الكريم في قصة البشرية حيث خلق الله جل وعلا آدم بيده الكريمة من طين، ونفخ فيه من روحه، قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ} [ص: ٧١]، وقال تعالى: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِي} [الإسراء: ٩].

وبيانا لفضل آدم عليه السلام علّمه الله أسماء الأشياء كلها، من الطيور، والدواب وغير ذلك، ثم عرض مسمياتها على الملائكة قائلا لهم: أخبروني بأسماء هؤلاء الموجودات، إن كنتم صادقين في أنكم أولى بالاستخلاف في الأرض منهم، قالت الملائكة: ننزّهك يا ربنا، ليس لنا علم إلا ما علّمنا إياه. إنك أنت وحدك العليم بشئون خلقك، الحكيم في تدبيرك. قال الله: يا آدم أخبرهم بأسماء هذه الأشياء التي عجزوا عن معرفتها. فلما أخبرهم آدم بها، قال الله للملائكة: لقد أخبركم أنني أعلم ما خفي عنكم في السماوات والأرض، وأعلم ما تظهرونه وما تخفونه. واذكر - أيها الرسول - للناس تكريم الله لآدم حين قال سبحانه للملائكة: اسجدوا لآدم إكراما له وإظهارا لفضله، فاطاعوا جميعا إلا إبليس امتنع عن السجود تكبرا وحسدا، فصار من الجاحدين بالله، العاصين لأمره.

وهذا مصداقا لقول الله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (٣٤) {البقرة: ٣١ -

ثم خلق الله تعالى لآدم حواء من ضلعه ليأنس إليها وقال الله: يا آدم اسكن أنت وزوجك حواء الجنة، وتمتعاً بثمارها تمتعاً هنيئاً واسعاً في أي مكان تشاءان فيها، ولا تقربا هذه الشجرة حتى لا تقعاً في المعصية، فتصيرا من المتجاوزين أمر الله. فأوقعهما الشيطان في الخطيئة: بأن وسوس لهما حتى أكلتا من الشجرة، فتسبب في إخراجهما من الجنة ونعيمها. وقال الله لهما: اهبطوا إلى الأرض، يعادي بعضكم بعضاً - أي آدم وحواء والشيطان - ولكم في الأرض استقرار وإقامة، وانتفاع بما فيها إلى وقت انتهاء آجالكم.

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩]، وقال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة: ٣٥ - ٣٦].

ولقد أقسم الشيطان لآدم وحواء بالله إنه ممن ينصح لهما في مشورته عليهما بالأكل من الشجرة، وهو كاذب في ذلك، قال تعالى: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} [الأعراف: ٢٠]، فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فأنكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما، فأخذا ينزعان من ورق أشجار الجنة ويلصقانه عليهما؛ ليسترا ما انكشف من عوراتهما، وخالف آدم أمر ربه، فغوى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها.

قال تعالى: {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [طه: ١٢١].

ولقد قال الله لإبليس: ما الذي منعك من السجود لمن أكرمته فخلقته بيدي؟ أستكبرت على آدم، أم كنت من المتكبرين على ربك؟ وفي الآية إثبات صفة اليبدين لله تبارك وتعالى، على الوجه اللائق به سبحانه.

قال إبليس معارضاً لربه: لم أسجد له؛ لأنني أفضل منه، حيث خلقتني من نارٍ، وخلقته من طين. - والنار خير من الطين -.

قال الله له: فأخرج من الجنة فإنك مرجوم بالقول، مدحور ملعون، وإن عليك طردي وإبعادي إلى يوم القيامة.

قال إبليس: ربّ فأخّر أجلي، ولا تهلكني إلى حين تبعث الخلق من قبورهم.

قال الله له: فإنك من المؤخّرين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم النفخة الأولى عندما تموت الخلائق.

قال إبليس: فبعزتك يا رب وعظمتك لأضلّ بني آدم أجمعين، إلا من أخلصته منهم لعبادتك، وعصمته من إضلاي، فلم تجعل لي عليهم سبيلاً.

قال الله: فالحقّ مني، ولا أقول إلا الحق، لأملان جهنم منك ومن ذريتك ومن تبعك من بني آدم أجمعين.

فأخرجه الله من الجنة، وأعطاه القدرة على الوسوسة والإغواء، وأمّله إلى يوم القيامة؛ ليزداد إثماً، فتعظم عقوبته، ويتضاعف عذابه، وليجعل الله محكا يميز به الخبيث من الطيب.

وهذا مصداقاً لقول الله تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) { [ص: ٧٥ - ٨٥].

ولقد تلقى آدم بالقبول بقول كلمات ألهمه الله إياها توبة واستغفارا، وهي قوله تعالى: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} فتاب الله عليه، وغفر له ذنبه إنه تعالى هو التواب لمن تاب من عباده، الرحيم بهم، قال الله لهم: اهبطوا من الجنة جميعاً، وسيأتيكم أنتم وذرياتكم المتعاقبة ما فيه هدايتكم إلى الحق. فمن عمل بها فلا خوف

عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا، والذين جحدوا وكذبوا بآياتنا المتلوة ودلائل توحيدنا، أولئك الذين يلزمون النار، هم فيها خالدون، لا يخرجون منها.

وهذا مصداقاً لقول الله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)} [البقرة: ٣٧ - ٣٩].

ومنذ أن اهبط الله آدم وزوجته إلى الأرض والعداوة قائمة بين بني آدم من جهة، وبين إبليس وذريته من جهة، وإبليس وذريته في صراع دائم مع بني آدم؛ لصددهم عن الهدى، وحرمانهم من الخير، وتزيين الشر لهم وإبعادهم عما يرضي الله؛ حرصاً على شقائهم في الدنيا، ودخولهم النار في الآخرة.

قال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦].

ويخبر الله تعالى بأن الشيطان بعد أن قضى الله الأمر ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول: إن الله وعدكم وعداً حقاً بالبعث والجزاء، ووعدتكم وعداً باطلاً أنه لا بعث ولا جزاء، فأخلفتكم وعدي، وما كان لي عليكم من قوة أقهركم بها على اتباعي، ولا كانت معي حجة، ولكن دعوتكم إلى الكفر والضلال فاتبعتموني، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، فالذنب ذنبكم، ما أنا بمنقذكم ولا أنتم بمنقذي من عذاب الله، إني تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله في طاعته في الدنيا، إن الظالمين في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب مؤلم أليم، وهذا مصداقاً لقول الله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي إِيَّيْكُمْ أَنْتُمْ كَفَرْتُمْ بِمَا أُشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: ٢٢].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

الدرس التاسع

بعثة الرسل والأنبياء للخلق وشهادة الناس لحمد ﷺ

الحمد لله نعمه ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضللّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع ما جاء من بعثة الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم فالله تعالى لم يخلق خلقه سدى ولم يتركهم هملاً بل أرسل إليهم الرسل الذين يبينون لهم عبادة ربهم، وينيروا لهم دروب الحياة، ويوصلوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)} [المؤمنون: ٤٤].

والله تعالى يرسل الرسل مبشرين أهل طاعته بالنعيم المقيم في الجنة، ومنذرين لأهل المعاصي بالعذاب الأليم في النار، فمن آمن وعمل صالحاً فأولئك لا يخافون عند لقاء ربهم، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

قال تعالى: {وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام: ٤٨].

وقال تعالى: {مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

ولقد عاش آدم ومن بعده ذريته عشرة قرون وهم على طاعة الله، وتوحيده، ثم حصل الشرك، وعُبد غير الله مع الله؛ فبعث الله أول رسله وهو نوح عليه السلام يدعو الناس إلى عبادة الله، ونبذ الشرك، وكل رسل الله تعالى اختلفوا فيما بينهم في الأزمنة والأمكنة والشرائع، واتفقوا في الأصل وهو الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥].

إلى أن جاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام فدعا قومه إلى ترك عبادة

الأصنام وإفراد الله بالعبادة، ثم كانت النبوة في ذريته من بعده في إسماعيل وإسحاق ثم كانت في ذرية إسحاق. ومن أعظم الأنبياء من ذرية إسحاق يعقوب، ويوسف، وموسى وداود، وسليمان، وعيسى عليهم السلام ولم يكن بعد عيسى نبي من بني إسرائيل، وبعد ذلك انتقلت النبوة إلى فرع إسماعيل؛ فكان أن اصطفى الله عز وجل محمداً ﷺ ليكون خاتماً للأنبياء والمرسلين، ولتكون رسالته هي الخاتمة، وكتابه الذي أنزل إليه وهو القرآن هو رسالة الله الأخيرة للبشرية، ولهذا جاءت رسالته شاملة، كاملة، عامة للإنس والجن، العرب وغير العرب صالحة لكل زمان ومكان، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبا: ٢٨]. ولقد كانت شهادة القريب والبعيد لمحمد ﷺ لمن الأمور التي تؤكد صدق الرسالة الإسلامية نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

١ - شهادة خديجة أم المؤمنين ﷺ لرسول الله ﷺ

قال ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: لَمَّا كَانَتْ خَدِيجَةُ ﷺ وهي زوجة النبي ﷺ تَعْلَمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ الصَّادِقُ الْبَارُّ، قَالَ لَهَا لَمَّا جَاءَهُ الْوَحْيُ: «إِنِّي قَدْ خَبَيْتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ: كَلَّا - وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ، إِنَّكَ تَتَّصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ - أي تنفق على الضعيف واليتيم والعيال -، وَتَقْرِي - أي تكرم - الضَّيْفَ، وَتُكْسِبُ الْمَغْدُومَ - أي تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك -، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ - أي مصائب الدهر -، فَذَكَرَتْ خَدِيجَةُ مَا يَنْفِي هَذَا، فَلَقَدْ عَلِمَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنَّ مَنْ جَبَلَهُ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَنَزَّهَهُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ: فَإِنَّهُ لَا يُخْزِيهِ (٣٣).

٢ - شهادة هرقل ملك الروم لرسول الله ﷺ

وَكَذَلِكَ هِرَقْلُ مَلِكِ الرُّومِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، طَلَبَ مَنْ كَانَ هُنَاكَ مِنَ الْعَرَبِ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ إِنْ كَذَبُوا أَنْ يُكْذِبُوهُ، فَصَارُوا بِسُكُوتِهِمْ مُوَافِقِينَ لَهُ فِي الْأَخْبَارِ، سَأَلَهُمْ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقَالُوا: لَا، قَالَ: هَلْ قَالَ

هَذَا الْقَوْلَ أَحَدَ قَبْلَهُ؟ فَقَالُوا: لَا، وَسَلَّهْمُ: أَهْوَ ذُو نَسَبٍ فِيكُمْ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، وَسَلَّهْمُ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالُوا: لَا، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا، وَسَلَّهْمُ: هَلِ اتَّبَعَهُ ضُعَفَاءُ النَّاسِ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَذَكَرُوا أَنَّ الضُّعَفَاءَ اتَّبَعُوهُ؟ وَسَلَّهْمُ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَسَلَّهْمُ: هَلْ يَرْجِعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سَخَطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقَالُوا: لَا، وَسَلَّهْمُ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَسَلَّهْمُ: عَنِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقَالُوا: يُدَالُ عَلَيْنَا مَرَّةً وَنُدَالُ عَلَيْهِ أُخْرَى، وَسَلَّهْمُ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ، وَسَلَّهْمُ: بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَقَالُوا: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعِفَافِ وَالصِّلَةِ. وَهَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ مَسَائِلَ، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ مَا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَقَالَ: سَأَلْتُكُمْ هَلْ كَانَ فِي أَبِيهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، قُلْتُ: لَوْ كَانَ فِي أَبِيهِ مِنْ مَلِكٍ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مَلِكَ أَبِيهِ، وَسَلَّهْمُ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ فِيكُمْ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، قُلْتُ: لَوْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ أَنْتُمْ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَلَّهْمُ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، قُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدْعِ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، وَسَلَّهْمُ: أَضْعَفَاءُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتُمْ: ضَعَفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، يَغْنِي فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: وَسَلَّهْمُ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَقُلْتُمْ: بَلْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَلَّهْمُ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سَخَطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، إِذَا خَالَطَتْ بِشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ عِلَامَاتِ الصَّدَقِ وَالْحَقِّ، فَإِنَّ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْكَشِفَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، فَيَرْجِعَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَيَمْتَنِعَ عَنْهُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ، وَالْكَذِبُ لَا يَرُوجُ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ يَنْكَشِفُ.

وَسَأَلْتُكُمْ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُمْ: إِنَّهَا دُولٌ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لَهَا، قَالَ: وَسَلَّهْمُ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَهُوَ لِمَا كَانَ عَنْدَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِعَادَةِ الرُّسُلِ وَسُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ أَنَّهُ تَارَةً يَنْصُرُهُمْ وَتَارَةً يَبْتَلِيهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ - عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ عِلَامَاتُ الرُّسُلِ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِالسَّرَائِ وَالضَّرَائِ، لِيَنَالُوا

دَرَجَةُ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ. قَالَ: وَسَأَلْتُكُمْ عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ؟ فَذَكَرْتُمْ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ نَبِيًّا يَبْعَثُ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوِدِدْتُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ، وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ (٣٣).

٣- شهادة النجاشي ملك الحبشة لرسول الله ﷺ

وجاء في الرحيق المختوم أن جعفر بن أبي طالب وهو أحد من هاجر للحبشة فرارا بدينه عندما سأله ملك الحبشة النجاشي عن محمد ﷺ قال: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاقه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شَيْئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وأما به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شَيْئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك. فَقَالَ النَّجَاشِيُّ لَمَّا اسْتَخْبَرَ هُمْ عَمَّا يُخْبِرُ بِهِ - أي رسول الله ﷺ - وَاسْتَفْرَأَهُمُ الْقُرْآنَ فَقَرَأُوا عَلَيْهِ: فَقَالَ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُخْرِجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ (٢٦).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس العاشر:

حسن خلق رسول الله ﷺ وسماحته مع الناس

الحمد لله نعمه ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع حلم رسول الله ﷺ بالأعرابي الذي جذبته جذبة شديدة، أخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَذْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ ثُمَّ قَالَ: مَرَّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ (١).

ولم لا؟! وقد قال الله تعالى عنه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤]، وقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩]، ولقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأعلى درجات التسامح، فقال له تعالى: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} وقال أيضاً: {فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} ولقد بعث الله تعالى نبيه ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا خَيْرَ رَسُولٍ لِّلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ بِهَا (٢).

ومع هذا فإن بعض الناس الذين لا يعرفون حقيقة هذا الدين يظنون أن الإسلام لا يعرف العفو والصفح والسماحة، وإنما جاء بالعنف

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٢٩٨٠.

(٢) (صحيح) أخرجه (خ) ٥٧٥٧ و(م) ٦١٩٠ واللفظ للبخاري

والتطرف، لأنهم لم يتحروا الحقائق من مصادرها الأصلية، وإنما اكتفوا بسماع الشائعات والافتراءات من أرباب الإلحاد والإفساد الذين عبدوا الشهوات ونهجوا مسلك الشبهات بما لديهم من أنواع وسائل الإعلام المتطورة.

ولم تقتصر سماحة النبي ﷺ مع المسلمين فقط بل شملت أهل الكتاب والمشركين أثناء الحرب فقد أوصى بالقبط - أي أهل مصر - خيراً وثبت عنه أنه قال: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً» (١)، وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْفِرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّهُمْ ذِمَّةٌ وَرَحِمًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ رَجُلَيْنِ يَتَقْتِلَانِ فِي مَوْضِعٍ لَبَنَةٍ فَاخْرُجْ» (٢).

وفيما يلي صور من سماحة رسول الله ﷺ مع غير المسلمين على سبيل المثال لا الحصر:

١ - رحمته ﷺ بالخلق عامة وهو الذي قال الله عز وجل عنه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١]، فكان ﷺ الرحمة المهداة إلى الخلق كلهم، وحث على العطف على الناس ورحمتهم، فعن جرير بن عبد الله قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ» (٣).

وكلمة الناس هنا تشمل كل أحد من الناس، دون اعتبار لجنسهم أو دينهم وجاءت النصوص في باب الرحمة مطلقة، وعن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ» (٤)، فدين الإسلام دين السماحة والرحمة يسع الناس كلهم ويغمرهم بالرحمة والإحسان.

٢ - دعاء رسول الله ﷺ لمخالفيه من غير المسلمين فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوساً قد كفرت وأبت

(١) (صحيح) أخرجه (ك) وصححه الألباني في س.ص ١٣٧٤.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٢٥٤٣.

(٣) (صحيح) أخرجه (خ) ٥٦٦٧.

(٤) (صحيح) أخرجه (خ) ٢١٩٥.

فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس - ظنا بأن النبي ﷺ إنما رفع يديه للدعاء عليها - فقال ﷺ: «أَمِدُّوْ سَا وَأَتِ بِهِمْ» (١). ودعا رسول الله ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعْتَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ، فَتَأْنَبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعْتَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ فَأَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَابٍ، فَسَمِعْتُ أُمِّي خُشْفَ قَدَمَيَّ فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خُضْخُضَةَ الْمَاءِ قَالَ: فَأَغْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ دِرْعَهَا، وَعَجَلْتُ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحْتُ الْبَابَ ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ (٢).

٣ - وكان رسول الله ﷺ يقبل هدايا مخالفه من غير المسلمين، فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر حيث أهدت له شاة مشوية، قد وضعت فيها السم (٣).

وقد قرر الفقهاء قبول الهدايا من الكفار بجميع أصنافهم حتى أهل الحرب، قال ابن قدامة في المغني: ويجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب، لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس صاحب مصر.

٤ - وكان رسول الله ﷺ يعامل مخالفه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء. فعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ (٤).

٥ - وكان رسول الله ﷺ يغشى مخالفه في دورهم، فعن أبي هريرة

(١) (صحيح) أخرجه (م) ١٩٧.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٢٤٩١.

(٣) (صحيح) أخرجه (خد) وصححه الألباني في فقه السيرة ٣٤٧.

(٤) (صحيح) أخرجه (م) ٢٧٥٩.

أَنَّهُ قَالَ بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ» فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَاهُمْ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَنَادَاهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا» فَقَالُوا: قَدْ بَلَغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ (١).

٦ - وكان رسول الله ﷺ يأمر بصلة القريب وإن كان غير مسلم، فعَنْ أَسْمَاءَ جَسَدِي قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ» (٢).

٧ - وكان رسول الله ﷺ غاية في الحلم والسماحة مع غير المسلمين من اليهود في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوه، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم فلهم الضمان النبوي.

ولقد ضمن لمن عاش بين ظهرائي المسلمين بعهد وبقي على عهده أن يحظى بمحاجة النبي ﷺ لمن ظلمه فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣).

وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» (٤)، تلك صور من سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين (٣٠).

هذا هو نبي الرحمة السراج المنير الذي قال عنه رب العالمين: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، وقال عنه رب العالمين أيضا: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (م) ١٧٦٥.

(٢) (صحيح) أخرجه (خ) ٢٤٧٧، و(م) ١٠٠٣.

(٣) (صحيح) أخرجه (د حق) وصححه الألباني في ص. ج ٢٦٥٥.

(٤) (صحيح) أخرجه (خ) ٢٩٩٥.

الدرس الحادي عشر

القرآن الكريم معجزة خالدة ومتجددة على مر العصور

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة مسليمة الكذاب مدعي النبوة الذي أراد أن يثبت للناس أنه يأتيه وحى من السماء فقام يولف قرأناً فأتيت كذبه أمام الناس، وكان مما قال: والزارعات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والشاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضّلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، لرفيقكم فامنعوه، والمعتز آووه، والناعي فواسوه، حيث أراد أن يعد سورة على وزن سورة العاديات فكان أضحوكا الناس وأيضاً أعد سورة أخرى عن الفيل قال فيها: الفيل وما أدراك ما الفيل، له خرطوم طويل. إن من تدبر في آيات القرآن الكريم عرف أن الله عز وجل جعل القرآن معجزة ودلالة وبرهاناً وتأييداً لنبوة محمد ﷺ، فما من نبي يبعث إلا ويؤيد بمعجزات، وكانت معجزة النبي ﷺ الخالدة هي القرآن الكريم، والله تعالى يتحدى من يشكك في القرآن ويقول أنه ليس من عند الله، فقال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، والله تعالى يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله فقال تعالى: {قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْأُنْثَى وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨]، فلما أكثر الكفار من إثارة الشائعات الكاذبة بأن القرآن من قول محمد ﷺ نفسه، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٣٨].

ولقد أكثر الكفار من إثارة الشائعات الكاذبة والشبهات لصد الناس عن هذا الدين، فقالوا عن القرآن: أن محمداً يراه بالليل ويتلوه بالنهار فقال

الله تعالى حكاية عنهم: {أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ} [الأنبياء: ٥]، وقالوا: إن القرآن كذب وأعاناه عليه آخرون فقال تعالى عن ذلك: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاءِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ} [الفرقان: ٤]، وقالوا: إنه قصص السابقين تملأ عليه صباحا ومساء فقال الله تعالى عن ذلك: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥)} [الفرقان: ٥]، وقالوا: إن له جناً أو شيطانا ينزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان، فقال تعالى ردًا عليهم: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)} [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢]، أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المذنب وما جربتم على الرسول كذبًا، ولا فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان؟ وكان مما قالوا عن النبي ﷺ: إنه شاعر وكلامه شعر فقال الله تعالى ردًا عليهم يصف الشعراء بثلاث صفات ليست في رسول الله ﷺ: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)} [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

وقالوا أن النبي ﷺ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، فكيف هو بنبي! فقال الله عنهم: {وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧)} [الفرقان: ٧]، وقالوا: إنه بشر فكيف أنزل الله عليه القرآن قال تعالى عن ذلك: {مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [الأنعام: ٩١]، ورد الله عليهم بأن كل قوم أنكروا على رسلكم رسالتهم قال تعالى عنهم: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ - مِّثْلُنَا} [إبراهيم: ١٠]، فقالت رسلكم لهم {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم: ١١]، فالأنبياء والرسول لا يكونون إلا بشرًا، ولا منافاة بين البشرية والرسالة. وكذلك أنكروا البعث فقال تعالى عنهم: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)} [الصفافات: ١٦ - ١٧]، وكذلك قالوا عن البعث بعد الموت إن هذا لأمر بعيد الحصول قال تعالى عنهم قولهم: {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق: ٣] (٢٦).

وقد يتوهم البعض أن التحدي القرآني كان للعرب فقط، هذا وهم كبير، فإن التحدي موجه إلى العالمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولم يأت دين من الأديان بمعجزة توضع بين أيدي الناس يبحث فيها أهل

كل عصر بوسائل عصرهم؛ مثلما أتى الدين الإسلامي بهذا القرآن، فكان النبوة بهذا القرآن متجددة أبداً، ولكي يقيم ربنا تبارك وتعالى الحجة على أهل العصور المتأخرة أبقى لهم فيه العديد من الآيات الكونية والتي تحوي من الإشارات الكونية ما لم يكن معروفاً لأحد من الخلق في زمن الوحي وذلك لأهداف وحكم يعلمها الله سبحانه وتعالى.

ولو تدبرنا آيات القرآن ونظرنا في أوامر الله وما جرت عليه من صلاح، فهي أوامر بالتوحيد والعقيدة أو بالصلاة أو بالزكاة أو بالحج أو بالصوم أو ببر الوالدين أو بصلة الأرحام أو بالدعوة إلى الله أو بالجهاد في سبيل الله.. كل الأوامر لو تفكرت فيها تجد أن في مشروعاتها خيراً عظيماً لهذه الأمة.

فهذه الصلاة يقول الله تعالى عنها: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥] لأنك تستحي أن تعمل منكراً وستصلي بعد قليل أو كنت تصلي قبل قليل وتناجي رب العالمين الذي أمرك بتجنب الفواحش والمنكرات.

ويقول الله تعالى في الزكاة: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} [التوبة: ١٠٣] فهل تدري أنك إذا دفعت الزكاة أنك تطهرت وزكوت؟ وما معنى تطهرت؟ أي: زكيت نفسك وطهرتها، فانتصرت على النفس، أخرجت المال، وهو تحت قدمك، وصرت أنت سيد المال، لكن إذا بخلت بالمال ولم تخرج زكاته تصير أنت عبداً للمال وعبداً للعالم.

وهذا الصيام يقول الله عز وجل عنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] فثمرة الصيام التقوى فإن النفس إذا امتنعت عن الحلال طمعا في مرضاة الله تعالى وخوفاً من عقابه فأولى أن تنقاد نفسه للامتناع عن الحرام.

وأن الإنسان إذا جاع بطنه صلحت سائر جوارحه، فالصيام يؤدي إلى قهر الشيطان وكسر الشهوة وحفظ الجوارح، وأن الصائم إذا ذاق ألم الجوع أحس بحال الفقراء فرحمهم وأعطاهم ما يسد جوعتهم، إذ ليس الخبر كالمعاينة وهكذا.

وأيضاً فإن من أعظم مقاصد الحج تهذيب سلوك المسلم الحاج، يقول الله عز وجل عنه: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧].

فالقرآن الكريم فيه صلاح الفرد والمجتمع، وفيه صلاح البشرية جمعاء، أنظر وتدبر أخي الكريم لقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠].

فإنه سبحانه وتعالى يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف في حقه بتوحيده وعدم الإشراك به، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه، ويأمر بالإحسان في حقه بعبادته وأداء فرائضه على الوجه المشروع، وإلى الخلق في الأقوال والأفعال، ويأمر بإعطاء ذوي القرابة ما به صلتهم وبرهم، وينهى عن كل ما قُبْحُ قولاً أو عملاً وعما ينكره الشرع ولا يرضاه من الكفر والمعاصي، وعن ظلم الناس والتعدي عليهم، والله - بهذا الأمر وهذا النهي - يعظكم ويذكركم العواقب؛ لكي تتذكروا أوامر الله وتنتفعوا بها.

والله سبحانه وتعالى قد استحفظ اليهود التوراة فخانوا وبدلوا، واستحفظ النصارى الإنجيل فخانوا وبدلوا، لذا فإن الله جل وعلا لم يستحفظ المسلمين القرآن؟ ولكنه تعهد بحفظه، فقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (٩) [الحجر: ٩].

ولا نعلم كلاماً قط في الأرض يحفظ كله ولا يغادر منه حرف إلا القرآن، فترى الطفل الصغير الذي لا يحسن المعاني يحفظ القرآن ولا ينساه.

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْشُرُوا فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ

تُهْلِكُوا، وَلِنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١)، قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ} [القمر: ١٧].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب
إليك)

* * *

(١) (صحيح) أخرجه (طب)، وصححه الألباني في ص. ج ٣٤.

الدرس الثاني عشر

إِنِّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامَ

الحمد لله حمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع مناظرات إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع والده وقومه وملك البلاد، أما الحوار الذي دار بينه وبين أبيه وقومه، قال إبراهيم عليه السلام لهم: ما هذه الأصنام التي صنعتوها، ثم عكفتم على عبادتها؟ قالوا: وجدنا آباءنا عابدين لها، ونحن نعبدها اقتداء بهم - وهذا قول كل من جاء ببدة وضلالة وضل عن طريق الهداية - قال لهم إبراهيم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في عبادتكم لهذه الأصنام في ضلال عظيم فهي لا تضركم ولا تنفعكم، تتحنونها ثم تعبدونها أليس هذا هو الضلال قالوا: أهذا القول الذي جئتنا به حق وجِدُّ، أم كلامك لنا كلام لا عيب مستهزئ لا يدري ما يقول؟ قال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: بل ربكم الذي أدعوكم إلى عبادته هو رب السماوات والأرض الذي خلقهن، وأنا من الشاهدين على ذلك، وهذا مصداقا لقول الله تعالى: {وَلَقَدْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ} (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) [الأنبياء: ٥١ - ٥٤].

ولقد أراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يقيم الحجة على عبَاد الكواكب والنجوم والشمس والقمر بأنهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة، فلما أظلم على إبراهيم عليه الصلاة والسلام الليل، ناظر قومه؛ ليثبت لهم أن دينهم باطل، وكانوا يعبدون النجوم. رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام كوكبا، فقال مستدرجا قومه لإلزامهم بالتوحيد: هذا ربي، فلما غاب الكوكب، قال: لا أحب الآلهة التي تغيب. فلما رأى إبراهيم القمر طالعا قال لقومه على سبيل استدراج الخصم: هذا ربي، فلما غاب، قال مفتقرا

إلى هداية ربه: لئن لم يوفقني ربي إلى الصواب في توحيدده، لأكون من القوم الضالين عن سواء السبيل بعبادة غير الله تعالى. فلما رأى الشمس طالعة قال لقومه: هذا أكبر من الكوكب والقمر، فلما غابت، قال لقومه: إني بريء مما تشركون من عبادة الأوثان والنجوم والأصنام التي تعبدونها من دون الله تعالى، إني توجهت بوجهي في العبادة لله وحده، فهو الذي خلق السماوات والأرض، مائلا عن الشرك إلى التوحيد، وما أنا من المشركين مع الله غيره.

وهذا مصداقا لقول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) { [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

إخوتي في الله، لقد حاج إبراهيم عليه الصلاة والسلام ملك البلاد النمرود حين ادعى الألوهية لأن الله أعطاه الملك فتجبر وسأل إبراهيم: مَنْ رَبُّكَ؟ فقال إبراهيم عليه السلام: ربي الذي يحيي الخلق فتحيا، ويسلبها الحياة فتموت، فهو المتفرد بالإحياء والإماتة، قال النمرود: أنا أحيي وأميت، أي أقتل مَنْ أردت قتلته، وأستقي مَنْ أردت استبقائه، فقال له إبراهيم عليه الصلاة والسلام: إن الله الذي أعبدته يأتي بالشمس من المشرق، فهل تستطيع تغيير هذه السُّنة الإلهية بأن تجعلها تأتي من المغرب؛ فتحير هذا الكافر وانقطعت حجته، شأنه شأن الظالمين لا يهديهم الله إلى الحق والصواب.

وهذا مصداقا لقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (٢٥٨) { [البقرة: ٢٥٨].

ولقد جاء الأنبياء كلهم لمقصد واحد وهو توحيد الله في الأرض

وإفراده بالعبادة ولكن الناس بدلوا، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (الأنبياء: ٢٥).

ولقد أشرك اليهود بالله عندما زعموا أن عزيزاً ابن الله، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (التوبة: ٣٠).

وأشرك النصارى بالله عندما ادَّعوا أن المسيح ابن الله وهذا القول اختلقوه، وهم بذلك يشابهون قول المشركين من قبلهم، فكيف يعدلون عن الحق إلى الباطل؟! ولقد خَلَقَ الله عيسى من غير أب كما خلق الله آدم من غير أب ولا أم، إذ خلقه من تراب الأرض، ثم قال له: "كن بشراً" فكان. من أجل ذلك، فإن دعوى الوهية عيسى لكونه خلق من غير أب دعوى باطلة؛ فأنتم عليه السلام خلق من غير أب ولا أم، واتفق الجميع على أنه عبد من عباد الله، قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (آل عمران: ٥٩).

فالإسلام هو دين الفطرة وهو ملة إبراهيم عليه السلام، وهذه الملة السمحة هي ملة إبراهيم عليه السلام، ولقد سمى الله هذه الأمة بالمسلمين في الكتب السماوية السابقة وجعل الله خاتم الرسل محمداً ﷺ شاهداً على المسلمين بأنه بلغ رسالة ربه، وجعل الله هذه الأمة شاهدة على الأمم السابقة بأن رسلهم قد بلغتهم كما أخبرهم الله تعالى في كتابه، قال تعالى: {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} (الحج: ٧٨).

ولقد اختار الله تعالى للناس الإسلام، فقال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} (آل عمران: ١٩).

ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى والانقياد له بالطاعة، والعبودية، ولرسوله النبي الخاتم محمد ﷺ بالإيمان به وبمتابعته ومحبته ظاهراً وباطناً، فلن يُقبل منه ذلك، وهو في الآخرة من

الخاسرين، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)} [آل عمران: ٨٥].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ - أي دين الإسلام - فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ - أي مقطوعة الأذن أو الأنف» (١).

وفيما يلي شهادة للفيلسوف الإنجليزي الشهير "توماس كارليل" حيث أطلال النفس في كتابه (الأبطال) عن النبي ﷺ يخاطب به قومه النصراني، ومن ذلك قوله: لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث في هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خذاع مزور.

وإن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس، أفكان أحكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتكة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟!

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً.. وما الرسالة التي أداها إلا حق صراح، وما كلمته إلا قول صادق (١٥).

وقال المؤرخ الإنجليزي ويلز: إن مصير أوروبا كلها للإسلام. وإن لم يكن ديناً وعقيدة فسلوكاً ومنهاجاً وأخلاقاً (٥).

وقال المستشرق الأمريكي فران فوجال: أرجو أن تتجحوا في الاستفادة من دينكم وقوانين شريعتكم ليس هذا من أجلكم فحسب.. بل من أجل الإنسانية (٥١).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ١٢٩٢، و(م) ٢٦٥٨.

الدرس الثالث عشر

قول الإسلام في المسيح عليه الصلاة والسلام

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع ما جاء في القرآن بأن عيسى عبد الله ورسوله، قال تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَوَدَّعَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزَيَ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكُلُمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا أَخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) } [مريم ١٦ - ٣٧].

المعنى: واذكر أيها الرسول في هذا القرآن خبر مريم إذ تباعدت عن أهلها، فاتخذت لها مكاناً مما يلي الشرق عنهم. فجعلت من دون أهلها سترًا يسترها عنهم وعن الناس، فأرسلنا إليها الملك جبريل، فتمثل لها في صورة إنسان تام الخلق. قالت مريم له: إني أستجير بالرحمن منك أن تنالني بسوء إن كنت ممن يتقي الله. قال لها الملك: إنما أنا رسول ربك بعثني إليك؛ لأهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب. قالت مريم للملك: كيف يكون لي غلام، ولم يمسنني بشر بنكاح حلال، ولم أك زانية؟ قال لها الملك: هكذا الأمر كما تصفين من أنه لم يمسنك بشر، ولم تكوني بغياً، ولكن ربك قال: الأمر عليّ سهل؛ وليكون هذا الغلام علامة للناس تدل على قدرة الله تعالى، ورحمة مثاً به وبوالدته وبالناس، وكان وجود عيسى على هذه الحالة قضاء سابقاً مقدراً، مسطوراً في اللوح المحفوظ، فلا بد من نفاذه. فحملت مريم بالغلام بعد أن نفخ جبريل في جيب قميصها، فوصلت النفخة إلى رحمها، فوقع الحمل بسبب ذلك، فتباعدت به إلى مكان بعيد عن الناس. فالتجأها طلق الحمل إلى جذع النخلة فقالت: يا ليتني مت قبل هذا اليوم، وكنت شيئاً لا يُعرف، ولا يُذكر، ولا يُدرى من أنا، فناداها جبريل أو عيسى: ألا تحزني، قد جعل ربك تحتك جدول ماء. وحرّكي جذع النخلة تساقط عليك رطباً غيضاً من ساعته. فكلي من الرطب، واشربي من الماء وطيب نفسي بالمولود، فإن رأيت من الناس أحداً فسألك عن أمرك فقلولي له: إني أوجبت على نفسي الله سكوتاً، فلن أكلّم اليوم أحداً من الناس. والسكوت كان تعبداً في شرعهم، دون شريعة محمد ﷺ. فأتت مريم قومها تحمل مولودها من المكان البعيد، فلما راوها كذلك، قالوا لها: يا مريم لقد جنّت أمراً عظيماً مفترى. يا أخت الرجل الصالح هارون ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش، وما كانت أمك امرأة سوء تأتي البغاء. فأشارت مريم إلى مولودها عيسى ليسألوه ويكلموه، فقالوا منكبرين عليها: كيف نكلم من لا يزال في مهده طفلاً رضيعاً؟ قال عيسى وهو في مهده يرضع: إني عبد الله، قضى بإعطائي الكتاب، وهو الإنجيل، وجعلني نبياً. وجعلني عظيم الخير والنفع حيثما وُجدتُ، وأوصاني بالمحافظة على الصلاة

وإيتاء الزكاة ما بقيت حياً. وجعلني باراً بوالدتي، ولم يجعلني متكبراً ولا شقيّاً، عاصياً لربي. والسلامة والأمان عليّ من الله يوم ولدت، ويوم أموت، ويوم أبعث حياً يوم القيامة. ذلك الذي قصصنا عليك - أيها الرسول - صفته وخبره هو عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مرية، بل هو قول الحق الذي شك فيه اليهود والنصارى. ما كان الله تعالى ولا يليق به أن يتخذ من عباده وخلقه ولداً، تنزّه وتقدّس عن ذلك، إذا قضى أمراً من الأمور وأراد، صغيراً أو كبيراً، لم يمتنع عليه، وإنما يقول له: "كن"، فيكون كما شاء وأراد. وقال عيسى لقومه: وإن الله الذي أدعوكم إليه هو وحده ربي وربكم فاعبدوه وحده لا شريك له، فأنا وأنتم سواء في العبودية والخضوع له، هذا هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه. فاختلّفت الفرق من أهل الكتاب فيما بينهم في أمر عيسى عليه السلام، فمنهم غال فيه وهم النصارى، فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة - تعالى الله عما يقولون -، ومنهم جاف عنه وهم اليهود، قالوا: ساحر، وقالوا: ابن يوسف النجار، فهلاك للذين كفروا من شهود يوم عظيم الهول يوم القيامة.

وأما الدليل على أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يصلب قول الله تعالى: {فَبِمَا نَفْسُهِمْ مَيَّاتَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)}

[النساء: ١٥٥ - ١٥٩].

المعنى: ولقد لعنا - أي اليهود - بسبب نقضهم للعهود، وكفرهم بآيات الله الدالة على صدق رسله، وقتلهم للأنبياء ظلماً واعتداءً، وقولهم: قلوبنا عليها غطية فلا تفقه ما تقول، بل طمس الله عليها بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً لا ينفعهم. وكذلك لعناهم بسبب كفرهم

وافترائهم على مريم بما نسبوه إليها من الزنى، وهي بريئة منه. وبسبب قولهم - على سبيل التهكم والاستهزاء -: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب (قتلناه)، وما قتلوا عيسى وما صلبوه، بل صلبوا رجلاً شبيهاً به ظناً منهم أنه عيسى. ومن ادّعى قُتْلَهُ من اليهود، ومن أسلمه إليهم من النصارى، كلهم واقعون في شك وخيرة، لا عِلْمَ لديهم إلا اتباع الظن، وما قتلوه متيقنين بل شاكين متوهمين. بل رفع الله عيسى إليه ببدنه وروحه حياً، وطهره من الذين كفروا. وكان الله عزيزاً في ملكه، حكيمًا في تدبيره وقضائه. وإنه لا يبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد نزول عيسى آخر الزمان إلا آمن به قبل موته عليه السلام، ويوم القيامة يكون شهيداً بتكذيب من كذبه، وتصديق من صدّقه.

ولقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بأن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: تعالوا إلى كلمة عدل وحق نلتزم بها جميعاً: وهي أن نُخْص الله وحده بالعبادة، ولا نتخذ أي شريك معه، من وثن أو صنم أو صليب أو طاغوت أو غير ذلك، فإن أعرضوا عن هذه الدعوة الطيبة فقولوا لهم - أيها المؤمنون -: اشهدوا علينا بأننا مسلمون منقادون لرئيسنا بالعبودية والإخلاص.

وهذا مصداقاً لقول الله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

وبخبرنا رسول الله ﷺ بنزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، فعن النّوّاس بن سَمْعَانَ رضي الله عنه، عن النّبِيِّ ﷺ قال: ... «إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَيْنِ وَاضِعًا كَفِّهِ عَلَى أُخْرَجَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ - أي خفضه - قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّوْلُؤِ - أي يتساقط منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفائه -، فَلَا يَحِلُّ - أي لا يمكن ولا يقع - لِكَاثِرٍ يَجْدُرِ بِرِيحِ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ، فَيَطْلُبُهُ - أي الدّجال - حَتَّى يَذُرْكُهُ بِيَابَ لُدٍّ - أي بلدة قريبة من بيت المقدس - فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُجَدِّدُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ

أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ - أَي لَا قُدْرَةَ وَلَا طَاقَةَ - لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرَزُوا عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ - أَي مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مَرْتَفِعٍ يَسْرِعُونَ -، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةٍ طَرِيقَةٍ فَيَسْرُبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ هَذِهِ مَرَّةً مَاءً!! وَيُحْصِرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثُّورِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ - أَي إِلَى اللَّهِ -، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ - أَي دُودٌ يَكُونُ فِي أَنْوْفِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ - فِي رِقَابِهِمْ فَيُضْبِحُونَ فَرَسَى - أَي قَتَلَى - كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَسْنَهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَغْنِاقِ الْبُخْتِ - أَي الْإِبِلِ الْخَرَّاسَانِيَةِ - فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ - أَي لَا يَمْنَعُ - مِنْهُ يَنْتُ مَدْرٌ - أَي: الطِّينُ الصَّلْبُ - وَلَا يَبْرُ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتَرَكَّهَا كَالرَّلْفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْتِ بَرَكْتِكِ وَرَدِّي بَرَكَّتِكَ فَيَوْمِئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ - أَي الْجَمَاعَةُ - مِنَ الرَّمَانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِحِفْهَفِهَا، وَيُبَارِكُ فِي الرُّسُلِ - أَي اللَّبَنِ - حَتَّى أَنَّ اللَّفْحَةَ - أَي الْقَرِيبَةَ الْعَهْدَ بِالْوِلَادَةِ - مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفَنَامَ - أَي الْجَمَاعَةَ - مِنَ النَّاسِ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَحْدَ مِنَ النَّاسِ - أَي الْجَمَاعَةَ مِنَ الْأَقْرَابِ دُونَ الْقَبِيلَةِ -، فَيَنْتَبِهُهُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَانِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ - أَي يَجَامِعُ الرِّجَالُ النِّسَاءَ عِلَانِيَةً - فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ» (١).

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ، وَابْنُ أُمِّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّانِيَةِ شَاءَ» (٢).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٢٩٣٧.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٢٨.

obeikandi.com

الدرس الرابع عشر

أركان الإسلام الخمسة وأركان الإيمان الستة ودرجة الإحسان

الحمد لله نعمه ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع حديث جبريل عليه السلام حين قدم على رسول الله ومعه أصحابه في صورة آدمي، من حديث أبي ذر الذي رواه النسائي الذي قال فيه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَصْحَابِهِ فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَذْهَبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَسْأَلَ، فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا يَعْرِفُهُ الْغَرِيبُ إِذَا آتَاهُ، فَبَيْنَمَا لَهُ نُكُوتًا مِنْ طِينٍ كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَإِنَّا لَجُلُوسٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ أَحْسَنُ النَّاسِ وَجْهًا وَأَطْيَبُ النَّاسِ رِيحًا كَأَنَّ ثِيَابَهُ لَمْ يَمَسَّهَا دَنَسٌ حَتَّى سَلَّمَ فِي طَرَفِ الْبَسَاطِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ..^(١)، وأما حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رواه مسلم فلفظه: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ» قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ» قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ: «مَا الْمُسَوُّوْلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ

(١) (صحيح) أخرجه (ن) ٤٩٩١ وصححه الألباني.

السَّائِلُ»، قَالَ: فَأَخْبَرَنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَقَّاءَ الْعُرَّاءَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَطَّأُولُونَ فِي الْبُيَّانِ» قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عَمْرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَكْثَرُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

إخوتي في الله، من هذا الحديث يتبين لنا أن أركان الإسلام خمسة: أولها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة أي الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة أي عند بلوغ نصاب الزكاة، وصوم رمضان وذلك لمن قدر على الصيام ولم يكن عنده عذر شرعي يمنعه من الصيام، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، أما أركان الإيمان فهي ستة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه مثل التوراة والإنجيل والقرآن، ورسوله واليوم الآخر وما فيه من غيبات والقدر خيره وشره.

والإسلام مرحلة تسبق الإيمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً والدليل قول الله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الحجرات: ١٤]، والإيمان عند أهل السنة والجماعة قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، ومن أهم صفات المؤمنين الإيمان بالغيب فوصف الله تعالى بها عباده المتقين في سورة البقرة قال تعالى: {الْمُؤْمِنُونَ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)} [البقرة: ٣].

ويتحول الغيب إلى مشاهد إذا عاين العبد الحق وحضر الموت فقال: إني تبت الآن فليس لهذا الإنسان توبة أبداً، إذ أنه الآن لم يعد مؤمناً بعالم الغيب، بل أصبح مؤمناً بعالم الشهادة؛ لأنه يرى الملائكة عياناً أمامه، إذ: ما الفرق بينه وبين الكفار الذين طلبوا أن يروا ربهم، أو يروا الملائكة؟!.

قال تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٩.

مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: ١٥٨].

والنتيجة الطبيعية لعدم الإيمان بالغيب عدم رؤية الأشياء على حقيقتها، فيعيش الإنسان في شك وحيرة وشتات للقلب، يلهث ويجري ويكدح في هذه الحياة، ولكن من غير هدف، ومن غير راحة، ومن غير اطمئنان على الإطلاق؛ فسبحان الله! هل يطمئنون وهم لا يؤمنون بالآخرة؟ يقول الله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (١٢٤) {طه: ١٢٤}.

ولذلك يصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يؤمنون بما جاء به الله ورسله من غيبات قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (١٥) {الحجرات: ١٥}، وهناك صفات كثيرة للمؤمنين نذكر منها ما جاء في سورة المؤمنون قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)} [المؤمنون: ١ - ١١].

وأخبرنا رسول الله ﷺ بأنه من آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وأقام أركان الإسلام: الصلاة والزكاة أدخله الله الجنة، فعن أبي هريرة ؓ: «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسًا فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ (١)».

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٦٩٨٧.

وفي حديث جبريل عليه السلام عرّف رسول الله ﷺ درجة الإحسان وهي درجة أعلى من درجة الإيمان فَمَنْ عَبْدَ الله وكأنه يرى الله تعالى فقد بلغ مرتبة الإحسان. وهذه المراقبة لا تكون بالدعوى والكلام بل هي في قلب المرء، ومن راقب الله في سره هداه الله إلى الأعمال الصالحة، فمراقبة النفس ما هي إلا مجاهدتها أن ترتكب ما لا يرضاه الله تعالى قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]

ولقد ضرب الصحابة الكرام المثل الأعلى في مراقبة الله تعالى بعد رسول الله ﷺ، فقد ورد عن أنس رضي الله عنه قال: إِنْكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُؤَبَّاتِ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يَعْني بِذَلِكَ الْمُهْلَكَاتِ (١).

ذلكم هو الفرق بين جيل الصحابة وتابعيهم وبين ما أعقبهم من أجيال: فلقد عبدوا الله تعالى باخلاصهم ومراقبتهم الله تعالى قبل أن تتحرك جوارحهم بالعبادة، فأكرمهم الله تعالى بالهداية والتسديد في هذه الحياة الدنيا، ولأجر الآخرة أكبر، فمراقبة الله تعالى ما هي إلا مجاهدة النفس أن ترتكب ما لا يرضاه الله تعالى.

وكذا بيّن رسول الله ﷺ في حديث جبريل عليه السلام شيئاً يسيراً من أشرطة الساعة وهي علامات اقتراب وقوع الساعة، منها أن تلد الأمة ربتها وقد حصل هذا لما كثرت الفتوح صار الرجل يأخذ إماء كثيرة عشر أو عشرون من الإماء، فيطأ هذه ويطأ هذه، فكل واحدة تنجب فيصبح الأولاد أسyادا على الأمهات لكثرة الرقيق، أما المراد أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان أي أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم، وتكثر أموالهم، حتى يتباهوا بطول البنيان وإتقانه، والله أعلم.

ولمعرفة المزيد من أشرطة الساعة الصغرى وكذلك أشرطة الساعة الكبرى يمكن الرجوع لكتاب (زاد المسلم اليومي من العلم الشرعي).

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٦١٢٧.

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

الدرس الخامس عشر

الركن الأول من أركان الإسلام

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة عظيمة تبين عظمة كلمة التوحيد فَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ - أَيْ قَبِيلَةٍ مِنْ جَهينة - فَصَبَّخْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِيَنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ فَطَعْنَتْهُ بِرُمَحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قِيمْنَا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أُسَامَةُ أَقْتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا - أَيْ مُسْتَجِيرًا مِنَ الْقَتْلِ - فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ^(١).

وسئل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى عن الشهادتين فأجاب بقوله: الشهادتان " شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله " هما مفتاح الإسلام ولا يمكن الدخول إلى الإسلام إلا بهما، ولهذا أمر النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن أن يكون أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فأما الكلمة الأولى: " شهادة أن لا إله إلا الله " فإن يعترف الإنسان بلسانه وقلبه بأنه لا معبود بحق إلا الله عز وجل، والمعني أنه لا معبود حق إلا الله وحده، وهذه الجملة مشتملة على نفي وإثبات، أما النفي فهو " لا إله " وأما الإثبات ففي " إلا الله " والله " لفظ الجلالة " بدل من خبر " لا " المحذوف، والتقدير " لا إله حق إلا الله " فهو إقرار باللسان بعد أن آمن به القلب بأنه لا معبود بحق إلا الله عز وجل وهذا يتضمن إخلاص

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٤٠٢١ و (م) ٩٦. واللفظ للبخاري.

العبادة لله وحده ونفي

العبادة عما سواه.

أما معنى شهادة " أن محمداً رسول الله " فهو الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأن محمداً بن عبد الله القرشي الهاشمي ﷺ رسول الله عز وجل إلى جميع الخلق من الجن والإنس كما قال الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلَامِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، ومقتضى هذه الشهادة أن تصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر، وأن تمتثل أمره فيما أمر، وأن تجتنب ما عنه نهى وزجر، وأن لا تعبد الله إلا بما شرع، ومقتضى هذه الشهادة أيضاً ألا تعتقد أن لرسول الله ﷺ حقاً في الربوبية وتصريف الكون، أو حقاً في العبادة، بل هو ﷺ عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً من النفع أو الضر إلا ما شاء الله كما قال الله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ} [الأنعام: ٥٠]، فهو عبد مأمور يتبع ما أمر به، وقال الله تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} (٢٢) [الجن: ٢١ - ٢٢]، وقال سبحانه: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٨]، فهذا معنى شهادة (أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله).

وبهذا المعنى تعلم أنه لا يستحق العبادة لا رسول الله ﷺ ولا من دونه من المخلوقين، وأن العبادة ليست إلا لله تعالى وحده {قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (١٦٣) [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]، وأن حق رسول الله ﷺ أن تنزله المنزلة التي أنزله الله تعالى إياها وهو أنه عبد الله ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، هذا وللشهادتين ثمرات عظيمة منها: تحرير القلب

والنفس من الرق للمخلوقين، والاتباع لغير المرسلين.

وسئل فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين رحمه الله تعالى عن أول واجب على الخلق، فأجاب بقوله: أول واجب على الخلق هو أول ما يدعى الخلق إليه وقد بينه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه لليمن، فعن ابن عباس رضي الله عنه، أن معاذًا رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تَتَّخِذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتَرُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ - أَيَّ أَنْ تَأْخُذَ أَفْضَلَ أَنْعَامِهِمْ عِنْدَ جَمْعِ زَكَاةِ الْمَالِ -، وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» (١).

وحتى يدخل الكافر دين الإسلام يغتسل غسل الإسلام وينطق الشهادتين هكذا ذهب الحنابلة، وذهب الحنفية، والشافعية إلى استحباب الغسل للكافر إذا أسلم وهو غير جنب، وإذا أسلم وهو جنب وجب عليه الغسل، وإذا نطق المرتد بالشهادتين صحت توبته عند الحنفية والشافعية والحنابلة (٧١).

ويأمر الله تعالى أهل الإيمان بطاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما وعدم إبطال ثوابهم بأعمال الكفر والمعاصي قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} (٣٣) [محمد: ٣٣].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (٥٩) [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} (٢٠) [الأنفال: ٢٠]، وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِي الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي» (٢).

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٤٠٩٠ و (م) ٩ واللفظ لمسلم.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ١٨٣٥.

ووضح أبو بكر ﷺ حدود الطاعة في خطبة توليه الخلافة حين قال: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم (١١).

ووضح عمر ﷺ حدود الطاعة في أول خطبة له عند توليه الخلافة حين قال: يا أيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم (٣٧).

ولقد رتب الله على طاعة الله ورسوله السعادة والفلاح والفوز في الدارين {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: ٧١]، كما رتب على المعصية، من العقوبات الدنيوية والأخروية، ما لا يعد ولا يحصى، ولا يحد ولا يستقصى، يقول سبحانه: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً} [الأحزاب: ٣٦]، ويقول الاله ﷻ: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣].

وأعظم عقوبة تصيب من خالف أمر الله وأمر رسوله، وأصر على المعاصي والمنكرات، أن يحال بينه وبين الإيمان الصحيح، وبينه وبين العقيدة السليمة، والطريق المستقيم، ويبتلى بزيغ القلب، وتلبس الشيطان وأعدائه، فيرى سوء عمله حسناً وقيحه صحيحاً، ولا يزال على ذلك مستمراً إياه، متعصباً له، مجادلاً فيه، مدافعاً عنه، حتى يموت عليه، ويبتلى بسوء الخاتمة - عياداً بالله من شديد غضبه، وأليم عقابه، قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف: ٥] (٥٣).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس السادس عشر

الركن الثاني من أركان الإسلام إقامة الصلاة

الحمد لله نعمه ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع رحلة الإسراء والمعراج التي فرض فيها الصلاة أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... ثُمَّ عَرَجَ - أي صعد كل من جبريل عليه السلام ومعه رسول الله ﷺ - إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمُعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سُدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرْفُهَا كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَتْ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أَمْنِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أَمْنَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَإِنِّي قَدْ بَلَوتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَارْجِعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَيَّ أَمْنِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَارْجِعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أَمْنَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ - فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ سَيِّئَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ»

والصلاة شأنها عظيم فإنها خمس في العدد وخمسون في الأجر وفرضت في السماء لعظم شأنها، فمن أسباب الفلاح المحافظة عليها، ولقد أخبر الله تعالى أنه: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)} [المؤمنون: ١]، {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)} [المؤمنون: ٩]، وقال تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨].

المعنى: أقم الصلاة تامة من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل، ويدخل في هذا صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأقم صلاة الفجر وأطل القراءة فيها؛ فصلاة الفجر تحضرها ملائكة الليل والنهار.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: ٩٩].

والصلاة هي أحد أركان الإسلام الخمسة فلقد قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» (٢).

ولقد بين لنا رسول الله ﷺ عظم الصلاة، فعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» (٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: انْظُرُوا هَلْ لِعِبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ» (٤).

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٢٥٩.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٨.

(٣) (صحيح) أخرجه (حم د ن ت)، وصححه الألباني في ص ٥٦٤.

(٤) (صحيح) أخرجه (ت ن ه)، وصححه الألباني في ص ٢٠٢٠.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الصَّلَاةُ الْخُمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغَشَّ الْكِبَائِرُ» ^(١).

ويتضح من هذا الحديث أن المحافظة على الصلوات الخمس وصلاة الجمعة يكفر الذنوب دون الكبائر، ولصلاة الجماعة مزية خاصة بينها رسول الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ بِضْعًا وَعَشْرِينَ دَرَجَةً» ^(٢).

ولقد هم رسول الله أن يحرق على المتخلفين عن صلاة الجماعة بيوتهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ نَاسَا فِي بَعْضِ الصَّلَاةِ فَقَالَ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ رَجُلًا يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَخَالِفَ إِلَى رَجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَأَمُرَ بِهِمْ فَيَحْرَقُوا عَلَيْهِمْ بِحَرَمِ الْخَطْبِ بُيُوتَهُمْ» ^(٣).

ولقد حذر رسول الله ﷺ من عدم قبول صلاة المتخلف عن صلاة الجماعة إلا لعذر، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِلَّا مِنْ عُذْرٍ -» ^(٤). والعذر الشرعي كمرض أو نوم أو نسيان أو خوف.. إلخ، كما أنه لم يرخص للأعمى حين سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَخَّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ فَرَخَّصَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ: «هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟» قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «فَاجِبٌ» ^(٥).

ولقد كان الصحابة يعدون المتخلف عن صلاة الجماعة منافقًا، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: مَنْ سَرَهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَاةِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْبُدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ،

(١) (صحيح) أخرجه (ت) ٢١٤ وصححه الألباني.

(٢) (صحيح) أخرجه (حم ق د ه) وصححه الألباني في ص. ج برقم ٣٨٢٣.

(٣) (صحيح) أخرجه (م) ٦٥١.

(٤) (صحيح) أخرجه (ه حب ك) وصححه الألباني في ص. ج برقم ٦٣٠٠.

(٥) (صحيح) أخرجه (م) ٦٥٣.

وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يَقَامَ فِي الصَّفِّ^(١).

إخوتي في الله، إن من مظاهر ضعف الإيمان: التكاثر عن الطاعات والعبادات، وإضاعتها، وإذا أداها فإنما هي حركات جوفاء لا روح فيها، وقد وصف الله ﷻ المنافقين بقوله: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي} [النساء: ١٤٢]، فيتأخر عن صلاة الجماعة ثم عن صلاة الجمعة، وقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ حَتَّى يُؤَخَّرَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»^(٢)، ومثل هذا لا يشعر بتأنيب الضمير إذا نام عن الصلاة المكتوبة، وكذا لو فاتته سنة راتبة أو ورد من أوراده فإنه لا يرغب في قضائه، ولقد حث رسول الله ﷺ على أداء الرجل السنن الرواتب في البيت حتى يتأسى به أهل البيت، فعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ خَيْرَ صَلَاةٍ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ»^(٣).

ولقد نهى رسول الله ﷺ عن منع النساء الصلاة في المسجد ولكن يخرجن غير متبرجات ولا يزاحمن الرجال وصلاتهن في بيوتهن خير لهن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ وَلَكِنْ لِيُخْرِجْنَ وَهُنَّ ثِفَالَتٌ - أي غير متبرجات -»^(٤).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (م)، ٦٥٤.

(٢) (صحيح) أخرجه (د) وصححه الألباني في صت ٥١٠.

(٣) (صحيح) أخرجه (ن طب)، وصححه الألباني في ص. ج برقم ١١١٧.

(٤) (صحيح) أخرجه (د دارمي بيهقي حم)، وصححه الألباني في إصلاح المساجد ٩١.